

مع الأديب العربي  
(الأعمال الإبداعية)

# فتحى غانم الجبيل

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

*Ambly*

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

الجيل

الجبيل

فتحى غانم

## الفصل الأول

حدث منذ أكثر من سبع سنوات ، وكنت أعمل في ذلك الوقت  
ملتصقا للتحقيقات بوزارة المعارف أن مرتت بتجربة مريرة . صدمتني  
وحولت كثيرا من الأفكار التي في رأسي الى مجرد سخافات . فكل  
شيء كنت أصدقه وأؤمن به كوسيلة لاصلاح مجتمعتنا . . . تخون من  
رأسي كما يتبخر الماء من آنية تغلى فوق النيران . .

ناداني مدير التحقيقات ، ولما دخلت عليه رأيت يبتسم ، وأنا أعلم  
جيذا ماذا تمنيه هذه الابتسامة المؤدبة التي تمكس مشاعر الحسرج  
والاعتذار . . . لقد اعتدت أن أرى الابتسامة على وجهه ، كلما كانني  
أعمل شاق مفاجيء ولكنني لم أدرك في تلك اللحظة أن ما سأقوم به  
سيعرضني الى خطر الموت ، خطر القتل في جبل في الصعيد ! لم  
أخفض المدير من بصره ، وهو يعبث بأصابع قلقة بورقة من حجم  
الفولسكاب مثبتة امامه في ملف أوراق اصفر اللون وقال بصوت خاويل  
ان يكون رقيقا حنوناً :

— أنا فكرت كويس ، وقلت لنفسى انك لسه شاب صغير

ومش متجوز . .

واستطاع المدير بهذه الكلمات القليلة ان ينقل الى القلق البادئ في  
أصابعه ، انتقل القلق من يديه الى العائشة بالورقة الفولسكاب  
الى قلبي . . .

ولم أرد عليه ، لأنني لم أفهم ماذا يريد مني بالضبط ، وماذا يعني  
بما يقول . .

واستمر المدير يقول بصوت يزداد رقة وحنانا :

— احنا كلنا متجوزين ، وعندنا اولاد ، وحرام يروح واحد متجوز

في هذه المهمة . . .

وزاد قلقي . . وانتعش فضولي . . فهذه أول مرة أسمع فيها عن

مهمه لا يصلح لها مفتش تحقيقات متزوج وله أولاد ، لقد سمعت من قبل عن تحقيقات لا يكلف المدير الشبان المزاج القيام بها ، كأن يكون التحقيق في قضية خلقية في مدرسة بنات عندئذ يبحث المدير عن أحد المحققين المتزوجين الذين يتسمون بالوقار ، ويشتهرون بالتدين الشديد ، والتزم في مراعاة أداء الفروض الدينية ، ويكلفه وهو مطمئن بأن يتحمم مدرسة البنات ويحقق في أسرار المدرسات وبنات الداخلية ..

وكان نحن المزاج من المحققين تسخر من مثل هذا الاختيار وتساءل كيف يفهم أحد الدراويش المشاكل الخلقية ، وقضايا الحب والغرام ، وكيف يحكم بالعدل ، ذلك المحقق المتزمت في أمور الدين .. انه ولا شك ينظر الى اية امرأة على أن مجرد وجودها خطيئة ، ومجرد لمسها ينقض وضوءه ، فما باله عندما يفكر في أنها أحبت ، أو شوهدت لذهب الى السينما مع أحد الشبان ، سيتهمها قطعاً بالفجور والدعارة ، وسيطالب بفصلها من عملها وسيكتب في تقريره أن هذه المدرسة لا تصلح لتربية الفتيات أو أن هذه البنات التلميذة كالميكروب يجب إبعادها عن بقية البنات قبل أن تنقل اليهن العدوى

وكان المدير يسمع احتجاجنا نحن المزاج ، وهو رجل طيب تقى ، فيهرز رأسه مستنكراً ويقول :

- انتم عايزين تروحوا تحقّقوا في قضايا زى دى .. وترجموا تقولوا المدرسة شريفة لانها احبت حبا شريفاً ، ومن حقها أن تختلط بالرجال .. أنا عارف أفكاركم اللي حترّب البلد .. وبس فالحين تقولوا على نفسكم اكم متحرّرين ، واننا ناس بتوع زمان ، ايامنا انتهت وخلص راحت علينا ..

كان هذا هو نوع النضاي الخطيرة والهامة التي يدور حولها النقاش في ادارة التحقيقات ، ولكنى لم أسمع من قبل عن قضية تسليح للشبان المزاج فقط ، ولا تصلح للمتزوجين ..

وقلت للمدير وأنا ما زلت في حيرة تامة :

- خير ان شاء الله .. ايه الحكاية ؟

فسكت برهة ، كأنه يدرس بمناية ما سيقوله لى ، وأخيراً رفع رأسه وحقق في يتفحصنى ، ثم قال :



وكان المدير يسمع  
احتجاجنا نحن المزاج  
وهو رجل طيب تقى ،  
بهرز رأسه مستنكراً

- ثم أنت صحتك كويصة . وما شاء الله الى يشوفك يفتكر ملاكم  
والا مصارع .. فيخاف منك ..

فسأته في دهشة :

- هو أنا رايح تحقيق .. والا خناقة ؟

فضحك المدير وقال :

- انت رايح عند جماعة حرامية ..

- واحنا مالنا ومال الحرامية .. دا شغل البوليس والنيابة .

- الموضوع كله متعلق بوزارة المعارف لانه خاص بالانار .

فقاطعت :

- فين ؟

- في الجبل الغربي امام الاقصر .. يعنى تنام بالليل في الاقصر

.. هناك استراحة فخمة لمصلحة الانار يبتزل فيها الاب دريتون ،

وحلاقى طباط عظيم ، واكل كويس ورخيص ، وبيت يطل على النيل

.. لكن يا بطل الصبح تعدى النيل وتروح الجبل ..

- عند الحرامية ؟

- تمام ..

فسأله ضاحكا في غير فهم :

- ودول اعمل فيهم ايه .. امسكهم .. اقبض عليهم ؟

فمد يده باللف الى قائلا :

- كل حاجة في الملف ده .. أنا اشرت عليه . وحولته عليك

وكلمت مصلحة الانار علشان يحجزوا لك الاستراحة .. وتسافر

الليلة او بكره على طول .. لان مفيش وقت . القضية

مستمجلة ..

وامسكت باللف ، وقرأت تأشيرة المدير في أعلى الورقة الفولسكاب ،

وقد كتبها بالبحر الأحمر . عاجل للاستاذ فتحى غانم للتحقيق ،

وقرأت الكلام المكتوب على الورقة ، بحجر ازرق ثقيل وخط اعتدت

قراءته أثناء تحقيتى مع المدرسين الازميين ، خط أنيق .. كتب بعناية

شديدة ، وفي أسفل الورقة توقيع باسم حسين على ، عن أهالى

قرية الجرنه ..

ودق جرس التليفون في تلك اللحظة ورنع المدير سماعة التليفون

وانهمك في حديث طويل ، لم أنتبه اليه .. كنت منهمكا بدورى في

قراءة ما كتبه حسين على ..

ومنذ وقعت عيني على السطور الاولى احسست بأنى انتقل الى عالم

غريب .. عالم بعيد عن الواقع .. فيه خيال واحلام . فلهذه هى طريقتنا

نحن . أبناء المدينة عندما نواجه مجتمعا آخر ، غير المجتمع الذى اعتدنا

عليه ، نحوله فى الحال فى ردوسنا الى وهم ، أو قصة أو فيلم أو

اسطورة ..

هذه هى طريقتنا في تخيل المناطق البعيدة النائية في قلب الريف

.. ان الذين يسكنون في المدينة يتسبون أهلهم الذين يسكنون في

القرى وفي مجاهل الريف ، يتجاهلون وجودهم ، انفصام تام يحدث

بين الأهل ، وبين الآباء والأبناء فتتقطع صلات القرى والدلم ، وينذهب

كل فريق الى حاله . فريق يعيش في مصيدة الريف وفريق يعيش

في مصيدة المدينة ، ولا صلة هناك بين الفريقين سوى صدقة أو

احسان متقطع من المدينة الى الريف ، أو زيارة تقابل بالفتور والانزعاج

من الريف الى المدينة ..

حسين على يتكلم باسم أهل قرية الجرنه .. وأنا لا اعرف مكانها ،

ولم أسمع عنها من قبل .. كل ما أعلمه قد سمعته منذ لحظات من

المدير ، وهى أنها تقع قبالة مدينة الاقصر ، وأن ما فيها « حرامية »

.. ولكن حسين على لا يبدو أنه أحد « الحرامية » انه يشكو .. يشكو

الحكومة من أجل سبب عجيب .. ان الحكومة تشيد قرية نموذجية ،

وهو ومعه جميع أهالى القرية يرفضون الانتقال الى القرية النموذجية

.. لماذا ؟ .. وهنا شمعت بعقل ماكر يكتب .. اذ مضت الشكوى

تعدد أنواعا من الاختلاسات والسرقات ، فى أخشاب وطوب وأدوات

البناء فى القرية النموذجية .. ما صلة هذه التهم بانتقال الأهالى الى

الساكن النموذجية .. هذا هو ما سيكشف عنه التحقيق ، ولماذا

يرفض أهالى الجرنه الانتقال الى قرية نموذجية تشيدها الحكومة لهم ..

وأنا أفكر فى خيوط أبدأ منها التحقيق ، محاولا ان أعرف بسرعة

كم سأمضى من الوقت فى هذه القضية وأقدر لنفسى يوما أو يومين

على الأكثر .. أسأل فيهما الأسئلة الجوهرية ، وأكتب الاجابات فى

الحشر ، وأنتهز الفرصة وأزور الانار فى النطقسة ، ثم أعود الى

الامارة .

وكان المدير قد فرغ من محادثته التليفونية ، ولاحظ أنى أقرأ  
الشكوى فتركنى وانصرف الى أوراكه ..  
وسأله بعد أن فرغت من القراءة :  
- ولكن أين الجريمة ؟  
فضحك قائلاً :

- أصل أنا زمان رحنت فى تحقيق فى المنطقة دى .. كنت ليه  
مفتش تحقيقات صغير ومش متجاوز .. وكانت الدنيا واقفة على رجل ،  
لان أهالى المنطقة يسبقوا علماء الآثار ويكشفوا المقابر وينهبوا الكنوز  
الى فيها ويهربوها .. تصور ان ثروة البلد التاريخية ، ومجسد  
الغرائفة كله ، نهبوه الناس دول ..  
- وعلمت ايه ؟

- رحنا ومعانا البوليس والنيابة والاب دريتون مدير مصلحة  
الآثار .. وبمدين قررنا أن لا بد من نقل كل الناس الى غايشين فى  
الجبل من مكانهم ، واقتريحت لجنة التحقيق انشاء قرية نموذجية  
فى الجبل علشان ينتقلوا فيها .. الكلام ده كان من خمستاشر سنة -  
سنة .. ومرت الايام ، وبنت الحكومة القرية ، لكن الاهالى مصممين  
يفضلوا مكانهم فى الجبل ..  
- والحكومة حتمل ايه ؟

فقال المدير فى حماس :  
- لا بد من انقاذ ثروتنا القومية .. ينتقلوا بالقوة .. حدي يرفض  
التمرد ، دول تاسن جهلة .. حرامية ..  
فقلت له :

- لكن الشكوى دى من الاهالى .. مش من الحكومة ..  
فهتف المدير

هامى دى طريقتهم فى مقاومة النقل ..  
رخيل الى أنى وجبت مخرجاً من هذه الورطة التى أنا مقبل عليها  
طرات على راسى فكرة .. فاسرعت أقول للمدير :  
- اكاف فلا داعى لسفرى .. ما دامت هذه الشكوى مجرد حجة  
لتأجيل نقل الاهالى ..

فنظر الى المدير فى خبت كأنه يعلم جيداً ما يدور فى راسى من  
خواطر وقال :

- أنت خائف تروح .. احنا قدامنا بلاغ عن سرقات واختلاسات  
ولا بد ان نحقق فى هذا البلاغ ، وسأله معرفتك بسبب هذا البلاغ  
لا دخل لها فى التحقيق .. مين عارف .. يمكن فيه سرقات واختلاسات  
فصلاً ..

وكنت أعلم أنه على حق .. فطويت الملف واستأذنته فى  
الانصراف ..

فودعنى قائلاً :

- خد بالك من نفسك .. رجاله الجبل شداد ، ومش زى  
الرجال الثانية .. على الموم يومين متروحين فيهم السبيح  
بالليل مع صحابك مش حاجة ..

فقلت له فى ضيق لم أحاول اخفاه :  
- لا .. مش حاجة ..

وانصرفت عائداً الى مكتبى .. وبدأت اروحى لزملاى عن المهمة التى  
أنا مقبل عليها .. كنت احاول أن اطهر أمامهم فى صورة البطل  
الذى قبل عن طيب خاطر ، أن يقوم بمقامرة خطيرة فى الصعيد .. وكنت  
أتكلم عن الحرامية .. كانى أعرف الناس الذين ساواجهم .. كانت  
الصورة التى أرسها فى ذهنى لى ولزملاى .. أنهم «كالخط» وأمثاله  
من وحوش الجبل من زعماء عصابات الصعيد ، الذين نرى فى الجرائد  
صور جيشهم بين وقت وآخر وقد وقف على رأسها مأمور المركز أو  
الحكمدار وفى يده المسدس ، ومن حوله ثلاثة من ضباط البوليس  
ومشرات الخفراء وقد شهبوا بنادقهم أمام الصور ..

وإذا بأحد زملاى يصيح فى دعر :

- ازاى تسافى هناك دلوقت .. ؟؟  
فقلت له :

- ليه .. فيه ايه هناك ؟؟

فمد يده الى صحيفة كان يقرأها وهو يقول :

- مكتوب فى الجرنال .. أنهم هجيو على القرية النموذجية اول  
امبارح وحرقوها .. وقلبوا ترولى .. انت رابع فى وقت خطير !

\*\*\*

ووجدت نفسى صباح اليوم التالى فى محطة القاهرة اصعد عربة

الدولاب جبل مانمشي .. وتجفسل الدولاب .. اوعى تنسى كوبس النور .. يعمل حريجة بمدين .. نبجي نجولو ياريت .. ماينفمش .. وصنمتمنى حروف « الجيم » التي طردت « القافات » من الكلمات وصنمتمنى كلمة « الخلجات » التي تستعملها الشقراء بدلا من كلمة « الملابس » .. واثرت في تلك النعمة من التدب في كلام الشقراء .. وهي تقول « نبجي نجواو ياريت ، ماينفمش » .

كنت انتقل محنولا بهذه اللهجة الصعيدية الى اقاصى الصعيد والقطار لم يتحرك بعد من محطة القاهرة ..

انه شيء محير حقاً ، ان ترى صعيدية وشقراء وزرقاء العيشين تحب باريس وترسل لها التيلات ، وتتكلم في نفس الوقت باللهجة الصعيدية بكل ما فيها من كلمات عتيقة ونفحات التدب والنعيم الحزين ..

هذه الشقراء وزوجها الاسمر ، يمثلان الطبقة الفنية المثقفة في الصعيد .. يمثلان القمة في مجتمع يتبع في اسفله « حسين على » الذي يشكو الحكومة باسم اهالى الجيزة ، والحرامية الذين يحرقون القرية التوحيجية ويقلبون الترولى ..

كيف تمشى الطبقتان جنباً الى جنب في صعيد واحد ؟ .. كيف يعيش عشق باريس مع عشق الجبل .. كيف تمشى الشقراء الخائفة من « حريج » يبيه « كوبس النور » في بيتها في نفس البيئة التي يشعل فيها الناس « حريجا » في قرية كاملة ..

هناك في عربات الدرجة الثالثة تحتشد مئات النماذج من حسين على ، جالسين على القاعد الخشبية ، الى جانب نسائهم في ملابسهن السوداء ، ويعالهن الحفاة المنسختى الملابس ، عائدين الى قراهم النائية في اقاصى الصعيد ..

فارق حائل بين الدرجة الثالثة وتكييف الهواء في قطار واحد ، انه الفارق بين السلة الملوقة بالشاي والسكر والبيض والمقاة بين القاعد الخشبية .. وبين تلك الحقايب الجلدية الفاخرة المكتظة باللابسي الصوفية والحريرية ، وزجاجات المطر ، واربطلة العنق والارواب دى شامبر .. انه الفارق بين السلة المحولة فوق رأس امرأة مسافرة ، وبين الحقية التي يحملها الحمال في عنابة .. ويمشى امامه صاحب الحقية او صاحبها ثم يقبض الحمال على ورقة مالية بعد ان يفرغ

تكييف الهواء في قطار الثانية عشرة ظهرا المسافرالى الصعيد .. كانت تصرفانى عادية ، لكن راسى لا يخلو لحظة واحدة من مسود خيالية مبهمة عن لصوص يعيشون في جبل قبالة الاقصر ، على ان اواجههم في لحظة حاسمة .. لحظة يحرقون فيها قرية ، ويقلبون ترولى ، ويتحدون الحكومة ، وتكتب عنهم الصحف اخبارا بعناوين ياذرة .. كنت اشعر بالخطر بطريقة مائعة .. انه خطسر اعرفه من خلال كلمات سمعتها .. ومن خلال سلور قراتها في الصحف خطسر بارد متجمد ، لا يؤلمنى ولا يفرغنى .. ولكنه يسيطر على عقلى ويتصلق افكارى .. انه خطر من نوع غريب .. خطر اشعر به وأنا جالس على مقعد وثير في عربة مكيفة الهواء ..

وكانت العربة مزدحمة بنساء انقيات يتكلمن بالفرنسية او باللهجة الصعيدية .. ولا تفرق بين نغمة اللغتين ، ان اللهجة الصعيدية على لسان المرأة الصعيدية ، تصبح معطولة مرنة ناعمة .. وفيها رقة .. كل الجفاف الذى يشعر به سكان الشمال في اللهجة الصعيدية ، مرجمة الى انهم لا يحسنون نطق هذه اللهجة .. فتبدو اذا حاولوا تقليدها منغرة متكررة .. تماما كما تتلف رشاقة اللغة الفرنسية على لسان من يجهل طريقة النطق بها ..

كان رجل صعيدى اتفق اسمر يودع صعيدية شقراء لها عينان زرقاوان ، كان يودعها لانها عائدة الى اسبوط ، وهي تودعه لانه مسافر الى فرنسا ..

وقالت الصعيدية الشقراء للرجل الاسمر بفرنسية عذبة :

ـ متى تصل الى باريس ؟ ..

واجابها الرجل :

ـ اصلها بعد غد ..

فقالت المرأة في حرارة :

ـ قبلتين .. لباريس

ـ قال الرجل في حرارة اشد ..

ـ قبلتين فقط .. ان باريس عشتيتى .. ساقبلها الف قبلة ..

ثم انطلقت الشقراء تقول بالصعيدية فجأة :

ـ متنساش تجفل البيبان والشبابيك مليح .. وتشيل خلجاتكى



الثالثة . انهم الان يتنفسون بحرية اكثر ، ويستقبلون باعينهم مناظر  
 مألوفة لديهم .. اما انا فلا املك الا الحذر والقلق والانكماش في  
 مقعدى المريح  
 وكانت الساعة العاشرة ليلا ، عندما وقف القطار في محطة الاقصر  
 . الانوار صفراء ، كأنها مضادة بغير نور .. كأنها مجرد لون اصفر  
 وسط سواد الليل ، وعربات الحنطور قليلة ، والبلدة خالية من الناس  
 .. صامتة .. وللمصمت طنين في الاذن التي اعتادت على ضججة  
 القاهرة ..

ومضى بي الحنطور الى استراحة الانار ، سارت العربى على مهل  
 في طريق بحذاء النيل الذى لم اتبينه فى ظلام الليل ، وحدثت محاولا  
 ان ألح شيئا من الشاطئ القربى ، حيث ينام حسين على الان ، فلم  
 اتبين شيئا .. كان الشاطئ الاخر اسطوره سوداء ، لا يضيئ نور ،  
 ولا سدى صوت ، ولا حتى شبح نبىء من وجوده ، وفجأة راعنى مبد  
 ضخم ، وممتد لمسافة طويلة .. الاعمدة الهائلة ، والتماثيل الواقعة  
 للوك متوجين ، وملوك جالسين ، وكتل ضخمة من الحجارة متناثرة  
 كفئات خبز هائل الحجم تاكل منه الالهة ..

واكتشيت مرة اخرى في مقعدى بالعربة الحنطور ، واحسنت  
 بالوحدة ، وتناوبت دقات قلبى مع دقات حوافر الحصان على الارض  
 .. والسائق غارق في صمت فرعونى ، لا ينس بكلمة واحدة ..  
 ووقفت العربى اخيرا في نهاية الطريق .. عند بيت اتيق له  
 حديقة ، ولا يبدو ان مخلوقا داخله ..

وهبط السائق من العربى ، ونادى باعلى صوته .. ونكسر  
 نداءه .. وهبط بدورى ، وصقت بكتلى يدي .. ولا رجيح  
 وقلت للسائق في حيرة :  
 ل دي استراحة الانار .. انت متأكد ..  
 فاجابنى في وجوم :  
 - ايوه ..

وصفت من جديد .. ونادى السائق من جديد .. ولا مجيب ..  
 ولم أستطع احتمال الفوضى الذى يحيط بي ، ولا الوحدة التى  
 تشد من حولي ، فقلت للرجل :

من مهمته .. انه الفارق بين المقاعد الخشبية والمقاعد القطنية الوثيرة  
 ذات الفأرشة المفضولة الكوية .. انه الفارق بين جردل فيه زجاجات  
 مملوءة بماء ملون ، يحاول عينا ان يبيعهما شاب ساقى القدمين قد رفع  
 طرف جلابيته فوق كتفه .. فظهر سزواله الطويل يصل الى ركبتيه وبين  
 « جرسون » اتيق يلبس الجاكت الابيض والبنطلون الاسود ، ويتحنى  
 في ثيب ويقدم القهوة التركية والشاي الهندى فى فناجين من الصينى  
 والى جانبها اكواب الماء المثلج ..

ودق الجرس الاول ، يعلن ان القطار على وشك الرحيل ، وودع  
 الرجل الاسر زوجته الشراء ، ونشطت الحربة فوق الرصيف ،  
 مسافر متأخر يريد اللحاق بالقطار ، وبائع صحف يريد ان يبيع جريدة  
 اخرى ، وصيحات المودعين تختلط بصيحات المسافرين ، وزاد مع  
 هذا الضجيج قلتي ، ونظرت في حيرة الى الرصيف ، ونظرت في حيرة  
 الى حقبة الاوراق الموضوعة على الرف فوق راسي .. داخل هذه  
 الحقبة ورقة من السبب في كل مالنا مقدم عليه .. ورقة مكتوبة من  
 رجل لا يركب القطار الا في الدرجة الثالثة .. وربما لم يركب القطار  
 ولم يره .. في حياته ، وأنا ذاهب اليه لافتح معه محضر تحقيق  
 ولا سأله ما اسمك وما عنوانك ، وما هي تفاصيل شكواك ..

ودق جرس الرحيل ، وانطلقت صفارة القطار ، وانطلق البخار  
 المحبوس في صدر القاطرة .. وتحرك القطار في رحلته

كلما توغل القطار في ريف الصعيد ، زاد شعوري بالانكماش داخل  
 عربة تكييف الهواء .. كل ما حولي من مناظر .. النخيل العالي ، والقرى  
 السوداء ، والماشية التى ترمى ، والفلاحون المائدون من حقولهم  
 .. والاطفال الذين يستحمون في الترع .. والنساء المتشحات بالسواد  
 يمشين بقمائمهن الرشيقة الهندابية .. كل هذه المناظر لأصلة لها  
 بالعالم الذى خرجت منه عربة تكييف الهواء .. تحولت هذه العربى  
 الى جزيرة صغيرة وسط بحر غريب من الخضرة والسواد والجبال  
 الصفراء العالية عند خط الأفق ..

من الصعب ان اخرج الان من هذه العربى .. كان ذلك سهلا  
 وانا في محطة القاهرة . فالمدينة الكبيرة الواسعة تنتظرني اما هنا  
 فسيتلقنى الجهول .. كل ما يحيط بي هو عالم ركاب الدرجة

.. هو ما فيش حد هنا ..

.. فاجابني الرجل بهدوء قائل :

.. ماتمرفوش :

انه لا يدري شيئا .. ونظرت اليه في عصبية ، كانه مسئول عن نظام .

الاستراحات في وزارة المعارف ..

.. يا للا .. غل وتر بالاس ..

وقطعت الطريق الطويل بحذاء النيتل ، وانا احصى النقود في

جيبى ، وهل تكفى للبيت ليلة في هذا الفندق الذى يهبط فيه

مليونيرات العالم والسواح الأمريكيون ..

وصعدت سلم وتربالاس الرخامى ، وقلبى واجف ، ولا اكاد ادى

شيئا من الانوار الباهرة ، ولا اكاد اسمع شيئا من ثرثرة امريكيات

مسنات في الشرفة التى يقضى اليها السلم ..

وفجأة رايت جسم رجل يمرضنى ويحدق في .. وانتفضت كاللوع

.. ثم صرخت في فرح .. انه صديق قديم .. زميل لى في كلية

الحقوق .. لقد نسيت تماما انه وكيل نيابة الاقصر الان ..

ودون ان ياخذ دوى ، كان قد اصبر امره بحفظ حقيبتى عند

موظف الفندق ، حتى ياخذنى الى بيته لانام معه ..

وفى لحظة انتشلتنى صديقى من وحدتى وغريبتى ، وكان الحديث

يدور حار بيننا ، ونحن جالسون في هو الفندق ، والى جانبنا سائح

وساحله بلعاب النرد ، بزهر من المطاط لا يحدث صوتا ..

قلت لصديقى وكيل النيابة :

.. ايه الى حصل في حريق القرية النموذجية :

.. فسالنى في دهشة :

.. حريق ايه ..

.. قللت له :

.. موش حرقوا القرية .. وقلبوا الترولى ..

.. فزادت دهشته وقال :

.. فين الكلام ده ..

.. قلت له :

.. هنا بالشط الغربى في القرية النموذجية ..

فماد يؤكد لى وهو يتلخصنى كاتى رجل يهدى

.. ما سمعتش عن حاجة زى كده .. هي القرية النموذجية دى

قئين ؟

ورويت لصديقى مهمتى ، وكان يستمع الى فى دهشة ، قلت له

عن « الجرنه » التى تقع فى الشاطىء الغربى امامنا ، ورويت له عن

القرية التى شيدتها الحكومة لاهل الجرنه ، حتى ينتقلوا اليها ،

ويكفوا عن سرقة الاثار ، وعن تمسك اهل الجرنه بالجبل الذى

يسكنون فيه ، حتى يستمروا فى نهب الاثار ..

وهز وكيل النيابة كتفيه وقال :

.. على العموم .. الشط الغربى خارج حدودنا .. خارج حدود

القانون والمدينة ومشاكل الامن والبوليس ، لا يوجد الان فى هذه

اللحظة من الليل رجل بوليس واحد هناك ، ولا اجنبى واحد ..

لا من السياح ولا منسا نحن ، حتى اهل الاقصر لا يجسرون على

البقاء فى الشاطىء الغربى بالليل .. بعد نستطيع الذهاب فى

الصباح كسواح او علماء اثار .. ولكن بمجرد ان تفيب الشمس

يرحل الجميع ، ويبقى اهل الجبل مع الجبل وحدهم لا تشاركهم

فيه الدولة ولا اى مخلوق اخر ..

فسألته :

.. والمهندس الذى بنى القرية النموذجية .. كيف استطاع

بناها ؟

.. فسكت قليلا كانه يتذكر شيئا ، ثم هتف :

.. المهندس .. نعم تذكرت .. هنا مهندس مشهور شفته هنا

مع اجانب وسواح .. مهندس شيك وشكله زى الفنانين الكبار

الاجانب ..

.. ثم نظر الى فى اهتمام وقال :

.. ده حتى الاميرة مهتمة بيه .. تعرف انها هنا .. يمكن تقوت

قدامنا دلوقت ! ..

ولم استطع ان اطفر من صديقى باجابة مفيدة على الاسئلة التى

تدور فى راسى ، فكيف نشرت الصحف ثبا الحريق دون ان

تعرف به النيابة .. وكيف استطاع مهندس ائنيق فنان ان يبنى

قرية وسعد رجال يصادون المشروع ويقاومونه  
قلت له :

- هل لنفوذ الاميرة صلة بانشاء القرية ؟  
فاجاب :

- لا شك ..

فعدت اسأله :

- اذن لماذا لا يستطيع نفوذ الاميرة ان يجبر اهل الجبل  
الانتقال الى القرية ؟

- لا ادري ..

وصمم صديقي على ان تبقى لئرى الاميرة ..

واحسست انه يماضى من شعور مزمن بالوحدة ، وانه كوكيل  
تيابة يضطر الى عدم مخالطة الناس ، فيأتى الى بهو الفندق  
ويجلس فيه وحيدا متحاليا فى مظهره .. مسكينا وحيدا فى  
داخل نفسه .. ويبحث عن متعة او تسلية خفية لا يدركها أحد  
من الناس .. كان يمتع نفسه برؤية الاميرة فى تلك الايام الثليلة  
التي تهبط فيها الى القصر ..

يجلس وينتظرها حتى تمر امامه ، فتنتهى سهرته ، كانه ذهب الى  
سينما او مسرح ، ويعود الى بيته وينام ..

ومرت الاميرة فعلا .. جرت امامنا فى لحظة خاطفة ، وغلغلا  
يجرى ثلاثة شبان طوال لا شك انهم امريكيون تفضح جبينهم  
قمصانهم المشجرة ، ومشميتهم السريمة . وحسبهم المتراسي ،  
وتنظراتهم القلقة البلهاء ..

وكان مرور الاميرة ، لحظة مقدسة عند صديقى ، فتحمد فى  
جلسته وربما منع نفسه من التنفس ؟ وكف قلبه عن الخفقان فقد  
تنهد بشدة ، وأخذ نفسه بقوة بعد ان مرت ..

ثم همس فى غيظه مكبوت :

- ملقيتش غير الخواجات تصاحبهم ، تنفكر ليه ؟

- ليه ؟

- علشان تقدر تعمل معاهم اى حاجة اما احنا يا مصريين فلززم  
تظهر قدامنا اميرة .. وتعاملنا على اننا عبيد عندها

ثم امسك يدي وصاح :

- ها هو المهندس الذى تسأل عنه ..

ومر امامى رجل شاحب طويل يتكلم مع شلة من رجال وسيدات  
بالفرنسية .. وكان صوته ناعما ليئا .. فيه ملل وسأم .. وكان  
يبدو عصيبا رغم هدوئه الظاهرى ..

وكانت اول مرة اشاهد فيها الرجل الذى يشكو حسين على من  
اهال الجرنة



فلس صديقي .. كان مستتبلا في شبه تخدير ، يروح ويحيى ،  
 وكانه يعيش حياة طبيعية

— وفاجاني بزجاجة كولوينا « اتكيسون » وبريانتين فاخر وزاينه  
 بعثنى بحلاقة ذقته ، ويسكب الكولوينا بفزارة على وجهه ويعطس  
 بها متدله ، واختار من فوق الكرسي الخشبي ، بدلة فاخرة ارتداها  
 وهو يقول لي انها « صوف انجليزى ممتاز .. ماركة دورى » ، ولع  
 حذاءه « الكنج » الذى اشتراه من القاهرة بخمسة جنيهات ،  
 وتحول فجأة الى رجل أنيق ، ووضع الطربوش فوق رأسه ، فأصبح  
 وقورا ، وتغيرت ملامح وجهه ، كأنه لم يكن منذ دقائق يصنع الشاى  
 فوق وابور الجاز وهو « بالقائلة واللباس » ..

— وخرجنا الى الشارع . هو وكيل نيابة الاصر ، الذى يعرفه كل  
 الناس وبرهونه ، وأنا صديقه الذى احتسب به لو حدثت لى شىء  
 هناك .. فى الشاطئ الغربى ، عندما أعير النيل لاحق فى شكوى  
 أهالى الجيل .. الاحمال الخطرين الذين يتحدون الحكومة ..

وقال صديقي وهو يودعنى :

— اذا لقيت أى صعوبة .. بلغ النيابة .. انت مفتش تحقيقات  
 فى وزارة المعارف .. لا انت بوليس ولا نيابة بلاش تدوش دماغك  
 اذا كانت الحكاية خطيرة بلغنا .. واذا كانت بسيطة اقلل المحضر  
 بسرعة ، وتعال تغدئ سوى ..

ورحبت بالفكرة . وودعته ، وناديت الحنطور وامرت السائق  
 ان يلعب بى الى تفتيش الانار ..

كنت أحس بشىء من القموض ، على الرغم من الطمانينة التى  
 ادخلها صديقي فى صدرى ، فهذه أول مرة فى حياتى أقوم فيها  
 بتحقيق بين أهالى قرية والحكومة .. والشكاوى التى حققت فيها  
 من قبل .. كانت بين أفراد ، بين مدرس وناظر مدرسة ، بين ولي  
 أمر تلميذة ومدرستها .. كان أفراد التحقيق محصورين دائما ومن  
 السهل على استدعائهم والفهم معهم ، لان عقليتهم قريبة من  
 عقليتى ، وموضوع الشكاوى يمس تصرفات متادة أعرفها ..

اما التحقيق بين قرية وحكومة ، فهو شىء جديد تماما لم أعرفه  
 من قبل ..

## الفصل الثانى

فتحت عيني على منظر وكيل النيابة .. واقفا « بالقائلة واللباس »  
 ممسكا بكوب شاى يقدمه الى وأنا راقد فى السرير

كان منظره مناقضا تماما لمظهره ، وهو جالس فى بهو فندق ونتر  
 بالاس ، أو عندما يجلس على منصة الاتهام فى المحكمة وقد علق  
 وشاحه الاحمر فوق صدره . ووضع الطربوش فوق رأسه ، ينظر  
 الى المتهمين فى تعال وغطرسه وكبرياء ..

كان مجردا من مظاهره ، وكان مسكنه مجردا ايضا من كل شىء .  
 حجرة ليس فيها غير سرير « سفرى » كسرير المستشفى ، اتسع لنا  
 بصعوبة ، ومسمار مثبت فى الحائط علق عليه كل ملابسه المنسوخة ،  
 ومقعد خشبي قاعدته مكسورة ، لا يصلح للجلوس ، ناسستمعله  
 كدولاب يضع فوقه ملابسه التنظيف المكنية ..

وهناك حجرة أخرى خاوية ، كدست فيها كتب القانون ،  
 وملفات القضايا على الأرض المترية ، وفى أحد أركانها مائدة  
 خشبية ، فوقها وابور جاز ، وصحون فيها بقايا طعام تمغن  
 ورباط عتق وقع على الأرض ونسيه فى مكانه لعدة ايام

اما المطبخ فممت ، مليء « بالكراكيب » .. وحلل وكتب وحقائب  
 سفر ، وسلم خشبي ، ومساند خشب ، وزجاجات بيرو فارغة  
 « طشت » وأشياء أخرى كثيرة ، لم أتبينها فى الاركان الممتة .  
 ولم يكن فى المطبخ « لمبة » تضيئه ..

قمت من السرير ، وارتديت حذائى فى الحال ، فلم يكن عنده  
 « شيشب » أضعه فى قدمى ، أما هو ، فكان يتكول فى مسكنه  
 بقباب خشبي يطرع على البلاط ملعنا بصوته الرتيب احتجاجا عاليا  
 على الحياة فى هذا المسكن ..

ولكن الاحتجاج الصادر من طرقة القبسب ، لم يكن ظاهرا فى

ورأيت أن أبدا أول خيوط من خيوط التحقيق من تفتيش الأناصر ، ليدلنى كبير المفتشين على طريقة الوصول إلى الشاطئ الغربى ، وأسما منه شيئا عن أهل الجبل وقصة القرية النموذجية .. وأسأله أيضا عن الاستراحة التى عجزت عن دخولها فى الليلة الماضية .. ، وانتهت فجأة من أفكارى ، على منظر النيل ، والشاطئ الغربى والجبل متوهجا بضوء الشمس ، وكان مركب كبير يسير فى النيل ، فى مؤخرته ساقية خشبية تدفع الماء وادها فى شلال من الماء الأبيض ، فيسندف المركب إلى الامام .. ومراكب شرعية كبيرة وصغيرة ، تنهادى فى سكون ، وشريط ضيق من الأرض الخضراء يحدها الشاطئ الغربى .. وأراحتنى رؤية الأرض الخضراء ، أنها أرض طيبة حنون ، مسحت بها قسوة الجبل وخشونته ورمال الصحراء المستدة إلى ما وراء الأفق ..

ووصلت مبنى التفتيش ، واقتحمته بشعور المحقق الذى اعتاد ان يدخل المدارس وإدارات الوزارة ، فيثير القلق والرهبة ، وينتفض السعاة وقولا أمامه بمجرد أن يعرفوا شخصه ، ويعامل من الموظفين كبارا وصغارا باهتمام وتعلق وخوف ..

ومضيت فورا إلى حجرة كبير المفتشين .. فاعترض طريقى أحد السعاة ، فلم أكرث له ، ودخلت الحجرة فإذا بها خاوية .. ولم يظهر الساعى اهتماما كبيرا عندما عرف أنه أمام مفتش تحقيقات ، وقال لى فى هدوء أشبه بالبرود :

— حضرة المفتش مع سمو الأميرة ..

قالها لى ، وكأنه هو أيضا مع سمو الأميرة ، وفى حمايتها وأدركت فى الحال ، أن كل هيبتى قد تبخرت ، فلا أحد فى هذا المكان من كبير المفتشين إلى أصغر السعاة ، سيهتم بمحقق مثل ، ولا حتى بوزير المعارف ، ولا رئيس الوزراء نفسه ، ما دامت هناك صلة بينهم وبين سمو الأميرة ..

وجانس أحد الكتبة ، وروى لى فى اعتداد ، أن حضرة المفتش يشرح لسمو الأميرة آثار مدينة « هابو » .. قلت فى غيظ مكثوم :

— وأشوف حضرة المفتش امتى ؟ ..

لأبشم وقال فى خبث .  
— والله حسب ظروف سمو الأميرة ، أصلها مغرمة بالأنار ويتطلب حضرة المفتش علشان يشرح لها كل حاجة ..  
قلت له :

— معنى الشرح ده .. ح يستمر كتر ..

فجز رأسه قائلا :

— معرفش .. يومين .. أسبوع .. سمو الأميرة هن إلى تحدد الوقت ..

وزاد غيظى ، وانهارت مقاومتى فى نفس الوقت ، لم يد هناك مجال لأن أقوم بدور مفتش التحقيقات الهاب الخطير .. واضطرت لأن اشرح للكاتب ظروفى ، أنه شيء ما كنت أقدم عليه ، فلو اتنى وجدت كبير المفتشين . كنت تجاهلت هذا الكاتب واحترت شأنه ، واقتربت أن عملى سرى لا يصح أن يعلم به مثل هذا الموظف الصغير ..

وقلت للكاتب :

— أنا عندى تحقيق فى الجريمة .. أراى أوصل لهنالك ؟

فقال الرجل ببساطة :

— حضرتك تاخذ مركب وتعدى النيل .

كان يتكلم وكأنه يقول « وأنا مالى » ..

وصحنت فى الرجل فى انفعال :

— دا تحقيق خطير .. والنيابة مهتة بيه .. أنا صديق وكينسل

نيابة الأقصر كان لسه يسألنى عن التحقيق ..

كنت أكتب وأناقف أى شيء وأقول أى كلام ، حتى امستعبد هيبتى ..

والفتت الكاتب إلى الساعى وقال له :

— شوف للبيه مركب توصله ..

قالها وكأنه يقول .. خلصنا منه ..

وخرجت وراء الساعى وهشيت فى الشارع وأنا أحس بمراودة وقماسة .. وأن وظيفتى والتحقيق الذى أقوم به وكل شيء ، قد تضاعل وأصبح زائفا أمام وجود الأميرة فى الأقصر

وتلقفني مسركب شرلعي ركابه بعض القرويين يحملون سلالا  
وصفائح منطاة ، بينهم رجل في ملابس العمل يمسك آلات تصليح  
الظلميات ومواسير المياه .. والراكبي قد غطى رأسه بعمامة كبيرة  
وأتردى سرورا له « تكة » من الحبل الغليظ

كانت الفوضى على ظهر المركب قريبة من الفوضى في بيت صديقي  
وكيل النيابة .. الفارق الوحيد بينهما ، ان هذه فوضى غير مستترة  
.. ظاهرة في عرض النيل ، بينما الفوضى في بيت صديقي يقنعها  
صديقي بغطر الانكسوف والصوف الانجليزي والطربوش ..

وصاح العامل وهو يخطب بكف يده على كمامة كبيرة في يده ..  
كان يتكلم مع الراكبي وكأنه يحدث في نفس الوقت جميع من في  
المركب :

- وين الاميرة دلوقيت يا محمدين ؟

فاجاب الرئيس ضاحكا :

- عندك هناك ها في البر الغربي

وعلا صوت العامل في انفعال قائلا وهو يضحك :

- كل يوم يا بوي .. يجيبولها ضابط حليوه .. من الميال بتوع  
مصر و .. ع .. تيدلهم ..

- بيحرسها ..

تاخذنيش نا احرسها ليلة .. بدمتي لو حرستها ليلة ماتيدلني

واصل ..

وضحك الراكبي .. وضحكنا جميعا ..

وقال الراكبي :

- تروح فين انت بخلجاتك المظلمة يا شحات في الاكابر . احنا

فجرا يا بوي خلينا في حالنا ..

فلمط انما دل رأسه ومد يديه وهو مسك يالكمامة وقال :

- يفتي يا رجالة .. تنهلط لهط .. خشمها .. عم بينجط

عسل ، وانلا يطنها يا بوي .. عم بيترجس رى الميجين الخبراني ..

وشمرت براحة نفسية غامرة ، وأنا استمع لكلام العامل ، حطم

الرجل بكللانه البسيطة العبارة ، تلك الرهبة التي شمعت بها

نمننا وان علينا الصبوت ، وهي تمر امامنا في بهو فندق وتتر بالاس

في الليلة الماضية .. كما حطم الرجل تلك القداسة التي احاطت  
بالاميرة وهذا الجو من التمايل والكبرياء الذي ساد تفتيش الانارلجورد  
ان كبير المفتشين ذهب ليشرح لها آثار مدينة هابو ..

كانت الاميرة هنا مجرد امرأة .. يروون عن ضباط حرسها  
القمص ، وينظرون اليها كأنني يشتهيها الرجال .. وهم الرجال  
الجديرون بها ..

ووصلنا الى الشاطئ الغربي ، وهبطت اليه ، وأنا اسأل الراكبي  
في حيرة :

- القرية النموذجية فين ؟ !

فقال الراكبي وهو يشير امامه :

- لوري الانارات عندك ها ..

ولم ينتظر الرجل ، وصاح ينادي على صائقي لوري كبير مكتوب  
على جانب « مصلحة الآثار »

وجاء السائق ، فقال له الراكبي :

- وصل الافندي .. عندكم ..

ولم يناقشني السائق ، واخذني معه ، وأركبني في المقعد الامامي،  
بينما انهمك في حديث طويل وهو واقف الى جانب اللوري مع بعض  
القرويين ..

واخيرا صعد ومعه رجل واسع العينين ، فيهما التهاب حاد ، حافي  
القدمين ، يلبس صديريا مخططا بخطوط زرقاء وسوداء وسرورا  
متسخا ، ومرة أخرى تذكرت صديقي وكيل النيابة وضحك في  
نفسى ، وأنا اتخيله « بالغانلة واللباس »

وحشرائي بينهما وانطلق بنا اللوري الى القرية النموذجية وأنا  
اعجب كيف وصل بي الحال الى ان اذهب الى تحقيق ، وأنا في هذا  
الوضع الغريب .. اركب لوري بين سائقه ورجل حافي القدمين ..  
وكان السائق يتحدث مع زميله عن « الست الخوجاية » ويسدو  
انها طيبة .. اذ كان الرجل المصاب بالتهاب في عينيه ذاهبا اليها  
لتعالجه ..

ولم افهم شيئا قاله الرجل بلهجة مريبة ، وهو يتحدث مع السائق  
.. قال له فجأة :

— بلمتي ما أنا رابع للست « الخوجاية » دي .. زى الخلى نى بالك  
.. عمري ما عتيت دارها يا شيخ فى العتمة ..

فقال له السائق :

— ما أنا عارف انك رجل زين ..

انتهت فتاة الى انها يتحدثان عن شىء مريب .. ان هذه الست  
« الخوجاية » لا تقوم بالمريض فقط .. فهناك من يزورونها فى  
العتمة .. لماذا ؟

وانتظرت متوقفة ان اسمع المزيد .. ولكنها غرقا فى صمت تام  
ومر اللورى بشرط حديدى ضيق ، عليه بعض عربات نقل  
الحجارة والترولى .. ولم أستطع منع نفسى من السؤال عن حداث  
قلب عربات الترولى وحريق القرية .. الذى قرأت عنه فى الصحف  
وأنا فى القاهرة ، ولم يسمح به وكيل النيابة فى الاقصر ..

وسالت السائق :

— هما قلبوا الترولى امتى ؟

فاجاب الرجل عن يميني :

— جليوه من غيظهم من المهندس يا إندى ..

قالها وكأبه يرحب بما حدث ..

وسالته :

— والبوليس عمل ايه ..

فقال الرجل دون أن يستريب فى أسألتي :

— ولا حاجة .. جليوه فى العتمة .. وخرجوا الشونة فى  
العتمة ..

وسالته مستفسرا :

— خرجوا الشونة ، والا القرية كلها ..

فصحك الرجل وقال :

— خرجوا جندار الشونة .. وطفوا الحريجة جبل ما تشمها

كان اللورى ينطلق بنا بين حشائش خضراء ممتدة من حولنا  
وكانت تيدو من الشاطئ الآخر على شكل شريط ضيق ، وقام وسط  
الحشائش تمثالان قرعونيان ضخمان ينظران الى الشرق فى سكوت  
عميق ، وعن بعد ظهرت أطلال مدينة قرعونية بمعاينها وأعمدها

وبواباتها الصخرية .. ثم ظهرت قرية ضمره مبنية من الطين  
التي ..

واحتشد بعض العمال أمام إحدى الدور تخسرج منها ضوضاء  
« موتور » وكان فى داخل الدار مصنع « ووقت اللورى فجأة وسألني  
السائق :

— انت رابع للاندى الماعون ..

فقلت له :

— لا .. أنا عايز حضرة المهندس ..

ونظر السائق الى فى دهشة ، كان مثل لا يصح أن يقابل المهندس ،  
وأشار الى إحدى الدور ، لها سور عال من الطين وقال :

— المهندس .. فى الدار دي ..

\*\*\*

ودخلت دار المهندس ، فرأيت شجرة كبيرة مزروعة وسط حوش  
وسمعت ضجيجا سادا لصوت امرأة تتكلم بالفرنسية وكان الصوت  
صادرا من أحد الابواب المفتوحة المطلة على الحوش ..

ودهمت الى مصدر الضجيج ، وعند مدخل حجرة صغيرة ، رأيت  
امرأة اعرابية تضع علامة زرقاء فوق رأسها ، وجمبت شجرها  
الاشقر كله تحت العمامة ، وترتدى عباءة من الصوف الخشن ،  
ووقفت فوق كرسي وسط الحجرة ، وفى يدها لمبة كهربائية تلوذ  
بها فى عصبية وتقول :

— انتم تريدون الخراب لهؤلاء المساكين .. تريدون طعنهم والقضاء  
عليهم ..

حينئذ منظر المرأة .. انها فرنسية فى ملابس الاعراب الذين  
تراهم فى الاغلام الأمريكية الملونة ..

ولمحت المهندس فى منظر غريب ، كان يرتدى عباءة صوفية  
خضراء فوق قميص وبنطلون ، ويضع على رأسه « بيريه » بنى اللون ،  
ويقف وسط الحجرة « مواجه الثائرة باللغة الفرنسية وهو صامت  
كتمثال درس الفنان الذى صنعه ، وقفته بدقة وعناية شديدين ..

واستمرت المرأة تصرخ بالفرنسية :

— انتم همج .. وحوش .. يجب أن تامر بإزالة موتور الكهرباء

الذى جئت به ههنا الصباح ، ساحطم لكم الاسلاك . سانسف الموتور  
.. ساقاوم هذه البشاعة التى جئت بها الى هذا المكان ..  
والقت المرأة باللحية المسكة بها ، ولحنن الحظ لم تتحطم ولكنى  
سمعت صوت صرخة نسائية ضعيفة ..

وتقدمت خطوة ، بعد أن كنت قد تراجعت خطوات وتواريت عن  
فتحة الباب ، وأنا ارى المرأة تقذف باللحية على الارض ..  
ورابت الحجره الضيقة تتسع لسيدتين اخريين يلفتا مرحلة  
الكهولة لا يقل سنهما عن الستين وربما السبعين ، وكان واضحا  
انهما اجنبيتان ..

وخرج المهندس من هدونه ، وتكلم دون أن يغير وقفته الفنية وقال  
كلمات ثائرة بصوت هادى يطغى عليه الملل والسام . قال بالفرنسية :  
.. سيدتى أن أعصابى لا تحتل كل هذا .. ان ما تفعلينه لا يليق  
.. آه يا ربى كم اعانى فى هذه المهمة اللعينة التى اقوم بها ..  
وهبطت المرأة « الاعرابية الفرنسية » من فوق الكرسي الذى تقف  
عليه .. وصاحت :

— لقد اذرتك ..

واقتحمت باب الحجره خارجة منه ، وعباءتها تسفل حيزا كبيرا  
من الفضاء حولها ، ومستنى بعباءتها ومضت الى خارج الدار تتمتم  
فى غيظ ، واختفت عن الانظار ..

ورأى المهندس ، نظر الى طويلا ، ثم حول بصره عني ، والتفت  
الى السيدتين المجوزتين ، وقال لهما بالفرنسية :

— آسف لما سببته لكما هذه السيدة من انزعاج .. انها تكرهنا ،  
ولا تحتل وجودنا هنا ..

والتفت فجأة ورايه فلما رأى واقفا ظهر عليه التردد  
والقلق ..

وتقدمت داخل الحجره وقلت له :

— أنا مفتش تحقيقاته بوزارة المعارف وفيه موضوع خاص بالقريه  
عايز اتكلم ممالك فيه ..

ونظر الى المهندس فى يأس قائلا :

— كل المتاعب يا ربى فى يوم واحد

والتفت الى السيدتين المجوزتين وكاتتا تاملانى فى فضول وقال  
لهما بالفرنسية ..

— اقدم لكما حضرتة .. موظف بالوزارة ..

لم التفت الى وقدمهما الى قائلا بالفرنسية :

— مدام « .. » والمموازيل اينتھا ، جاءتا اخيرا من الصين انھما  
لفانتان كبيرتان .. ارجو أن تجلس مھما حتى انتھى من مشكله  
« الموتور » ..

واحتنى راسه فى ادب جم وانصرف غاربا وكانه لم يسمع انى  
لمفتش تحقيقات ، وانى جئت من أجل تحقيق ..

وضايقنى انى لا اعرف بالضبط اى السيدتين المجوزتين هى الام ،  
وايهما هى البنت .. الاثنتان يلفتا سنا لا فرق فيه بينهما ، وبدأت  
اواجه احتمال أن احدهما قد جاوزت المائة عام ، فاذا كانت الابنة فى  
الثمانين ، فلا بد أن تكون الام قد جاوزت المائة ..

وقالت لى احدى المجوزتين فى هدوء

— ايها الشاب .. هيا بنا نخرج الى الحوش ، ونجلس هناك تحت  
الشجرة ..

ومدت لى يدها لاساعدها على النهوض ، ومدت لى الاخرى يدها  
ايضا وامسكت باليد الثانية كرامة و «البرم» صور وسارنا فى نشاط  
يناسب سنھما ؛ وجلسنا ثلاثتنا على دكة ، خشبية تحت  
الشجرة ..

كانت جلسة عائليه ، لا صلة لها بالتحقيق الذى جئت من اجله ،  
وقررت يبنى وبين نفسى أن اعامل واحدة منهما على أنها لأم ..  
و «الدام» لانها كانت تلبس فستانا اسود ، واقصر قامه من الاخرى  
التي تلبس فستانا رماديا فيه بقع سوداء كبيرة ، وجسمها مترهل  
بالسنة .. أقنعت نفسى بأن الام هى التي تلبس الفستان الاسود ..  
والمموازيل هى التي تلبس الفستان الرمادى ..

وسالتنى الام

— انت فنان ايها الشاب ؟

ووجدت أنه من قلة الذوق أن اخبرها بانى جئت فى تحقيق وأن



هناك بعض الاتهامات الموجبة الى القرية ..  
فاجبتها

- نعم ..

- وصديق للمهندس ..

فهزئت راسي قائلا :

- هذه هي اول مرة اتعرف فيها عليه ..

فهزت هي الاخرى راسها وقالت

- انه فتان عظيم .. انظر الى هذا البيت .. هل رأيت ستوف الحجرات  
على شكل قباب .. هل رأيت النوافذ انظر الى هذه الحديقة داخل  
السور الكبير ، انك لا تجدنا في أى مكان اخر في العالم .. انها  
مصرية أصيلة .. يجب ان تمشوا جميعا ايها المصريون في بيوت  
مثل هذا البيت .. انتم تخطون كثيرا بتقليدنا ..

وتدخلت المرأة ذات اللسان الرماذي قائلة :

- ماما ..

وتنهدت في ارتياح ، فقد تأكدت من صدق تخميني ..

واستأنفت الابنة التي في الثمانين من عمرها تقول :

- ولكنكم يفسدون الطبيعة .. ربما تصلح هذه المبانى للمدن  
كالقاهرة والاسكندرية ، افضل ان يعيش الاهالى في كهوفهم في  
الجليل .. حتى لا تفسدهم المدينة كنا افسدنا .. كان الافضل انشاء  
هذه القرية النموذجية في القاهرة ..

وهزئت الام راسها عدة مرات ، ولم تقل شيئا .. غرقت في بحر

من التأمل العميق ..

كانتا تحدثان في سريرة ، ولم أعرف ، اذا اقول لهما .. تخيلت  
القاهرة .. وكلها مبان من انطون النبي ، ثم رزف مصر كله ،  
والفلسطين يمشون على الطبيعة .. طيبة الارض والصحراء وكهوف  
الجيال التي تحف بالسموم .. وعجبت كيف يفكر مخلوق في ان  
الحياة على هذا النحو تكون حياة سعيدة ..

وتلوت في انماشة قلقت لهما :

- كيف يكون الناس سيدهاء .. وهم يعيشون كالحيوانات في

بهر الحمار ..

فقلنا تماملاني لفترة طويلة ... وتبادلنا النظرات ثم قالت الام في  
مستنكار :

- لقد فسدت عقليكم في الشرق .. حتى في الصين سمعتم  
دودون هذا الكلام .. انتم تريدون تحويل كل شيء الى باريس ..  
المدن الكبيرة فقط ، ولكن كل قرية كل كوخ تحملون بانه لابد ان  
يصبح كباريس يوما ما .. تدخله الكهرباء ، والكباريات ، والكتب  
مكاف والانهيار الخلقي .. وانعدام الذوق .. وضباب الفن .. لقد  
نا يا بنى من باريس لانه لم يعد فيها فن وتوجلتا في الشرق نبحت  
ماوى تلجأ اليه ، ولكن باريس تلاحقنا في كل مكان .. باريس  
أنتى ماتت مع « رودان » !

واردت ان اظهر لهما معرفتى بالفن .. فقلت :

- رودان كان مثالا عظيما ..

فقالته ببساطة :

- لا أحد ينكر هذا .. انه يتهوفن الموسيقى .. شكسبير الادب ..

كان عشيقى ، هذه هي ابنتى منه ..

وتجمعت لى مقدمى .. ان رودان من عظماء القرن التاسع عشر  
لايد انها عجوز جدا .. هل بلغت المائة والخمسين ، غير معقول ان  
استمع من امراة في مثل هذا السن انها كانت عشيقه .. غير معقول ان  
أواجه عشيقه « يتهوفن » او « رودان » فاحسنت بجزو خرافى يحيط  
بى ..

وانتابنى قلق مفاجئ .. متى انتهى من هذا التحقيق ؟

من المستحيل ان الحق الان بصديقى وكيل النيابة في موعده  
الهداء .. وملابى كلها عنده .. والمهندس قد اختفى .. واسراة  
غريبة تهدد بنسف موتور الكهرباء .. وعجوز تقول انها عشيقه  
رودان .. وانا جالس على « دكة » تحت شجرة في حوش .. كيف  
اتصرف .. اننى لا أستطيع ان أتناها بما سيحدث او بما سارى او  
اسمع في اللحظة القادمة

وأمسكت الابنة بكراستها ، وقدمتها لى لا تفرج على ما فيها من

سوم ، وهى تقول :

- هذه صور قديمة أخذتها منذ زمن بعيد ..



وقال المراسي :  
روح كين الت بفلجانك  
المحطة يا شحات في الآبار .  
أخا فجرو يا بوى خليتا في  
حالتنا ..

وتصلحت الكراسي .. وأنت إرجوه صبيتي وعنود .. وفجأة ،

هتفت :

— هذا تشرشل ..

فايقسنت قاتلة :

— كان في الثلاثين من عمره عندما جلس أمامي لأرسم له صورة

الصورة ..

قلت لها :

— ولكن ملامحه هي .. هي ..

فضحكت قاتلة :

— انه .. بولج

وتقدم منا مسفرجي في ملبسه البيضاء الانيقة ، وحول وسطه

زمام أحمر .. كأننا في ووتر بالاس وقال وهو ينحني في أدب :

— حفرة المهندس .. يقول لحضرتك تدب تنفرج على القرية ؟

ورعبت على الفون ، واستأذنت من السيدتين ، وتبعته الى الخارج ،

بيت وجدنا المهندس يقف بعباءته الخضراء ، وسط العمال ، أمام

البيت الذي يحتوي على « موتور » الكهرباء ..

كان المهندس يصدر أوامره بتشديد الحراسة ، فالهجوم محتمل ..

ومتوقع بعد انذار المرأة الاعرابية ، والعمال يريدون العودة في أسرع

وقت الى الاقصر ، لان أحدا منهم لا يرضى البقاء ليلا في القرية ..

وصاح المهندس في كلمات شجاعة بنفس الصوت القسار في

المسل :

— إنا ح انام الليلة في القرية ، وفيه صفات عواجز حياتنا هنا

.. محدش خايف من حاجة .. ألهم ان الحراسة تكون كويسة ..

وعاودني التشمور بالخطر الذي أحسست به في القاهرة عندما

كللتني مدير التحقيقات بهذا التحقيق .. وكان الخطر واضحا فقد

سمعت بأذني المرأة وهي تهدد بنسف الموتور .. والجديد في الامر

ألى كنت اتوقع الخطر من أمال الجبل ، ولم يدرك ذهني أن هناك

امراة تلبس عمامة وتتكلم الفرنسية التي تنم عن أصلها الفرنسي ..

هي التي ستكون مصدر الخطر ..

وجاهني المهندس وأخذني من يدي ، ومضى بي يشق طريقه بين

البياني ..

سأله :

— من السبت الى كانت ثائرة ضد الكهرباء والموتور ؟

فاجاب في عصبية :

— ست فرنساوية عابثة هنا في الجبل .. وتعمل صلات مع اهل الجبل بتمالجهم ..

فقاطعت وتذكرت الرجل المصاب بالتهاب في عينيه :

— طيبة عيون ..

— أبدا .. دى هاربة من فرنسا .. مش عايزة تعيش وسط المدينة .. ويقول انها تحب الناس البذائين ، وعازيهم يفضلوا بذائين ..  
.. علشان ما يتلونوش بالفساد .. يتعلم نسوان الجبل التطريز ، لانهم شاطرين وهما الى عملوها العباية بتاعتها وقدموها هدية لها ..

— وتفكر هي الى ورا الحديقة وقلب التروولى ؟

— هي ضد المشروع كله .. ما أقدرش اتهمها بحاجة .. ممنديش دليل ضدها ..

واقبلنا على ساحة كبيرة وسط المبانى .. فسكت المهندس وكأنه يتهاى نفسيا لتغيير موضوع الحديث ..

— هنا ساحة القرية .. تجسد فيها الجامع والمدرسة ودار العمدة ..

ثم قال .. وأشار بيده :

— وهناك السوق .. والخان ..

وقاطعته متسائلا :

— قصصك ايه .. بالخان ؟ ..

فنظر الى نسي كبرياء وقال :

— احنا في الشرق .. منعرفش اللوكاندات .. انما نعرف الخان الى يبنزل فيه التجار اثناء السفر .. وانا شخصيا احب كلمة خان ، وأفضلها على كلمة لوكاندة ..

وصنعت فجأة .. وسرح بصره الى الافق .. ثم أمسك يميني في انفعال وهنت :

— اوه .. ياربن .. او .. لا .. شوف البيت الى ماشية هناك ..

بتفضل صورة جميلة على جدار الجامع .. بس يا خسارة كان لازم تليس لستان يرتقال علشان الألوان تنسجم مع بعض ..  
وكانت فتاة حالية تليس « ملس » الفلاحات الاسود تسير عن بعد ولم اهتم ماذا يعنيته المهندس بكلامه عن الألوان .. ففصلت السمكوت ..  
وامضينا ثلاث ساعات ، نتجول في القرية ..  
ودخلنا دار العمدة ، وشاهدت حجرة مكتبه ، وحمامه الخاص ، والتواليات الافرنجى ذا السيوف ، وحجرات نوم الضيوف  
كانت دارا فخمة ، لا اظن ان اى عمدة يعلم بأجمل منها ..  
وفي الجامع ، شرح لى المهندس مساقط الضوء وكيف تنسجم مع خطوط البناء وحركات المصليين .. كانهم لن يصلوا بل سيرقصون باليه على مسرح حديث الاضاءة ..  
وفي المدرسة ، وقف المهندس امام بناء صغير ، وقال لى بالفرنسية :

— هذه .. هي الكنيسة .. ثم استدرك قائلا :

— اقصد الجامع ..

وفتح يديه في الهواء ، فانفجرت عياده ، وأصبح له كيان ضخم ، وقال في تأثر :

— وجود هذا البناء .. يثير الرهبة في نفس الطالب .. كل المدارس الانجليزية ، لايد ان يكون فيها كنيسة .. وفي مكان بارز .. علشان تكون رمز للتلاميذ ..

وكتت أفكر في التطور الخطير الذى سيحدث في حياة اهل الجبل ؛ ونحن نشاهد احدى الدور القائمة لهم

وسألنى المهندس :

— لاحظت حاجة في البيت ده ؟ ..

فاجبتني :

— لاحظت انه بيت جميل ..

نهر رأسه وقال :

— ده .. مكيف بالهواء البارد والساخن ..

ولم أسدقه .. ولكنه اشار الى الجدران وقال :

— الجدران دى سميكة ، تحفظ الحرارة داخل البيت فى الشتاء ..  
وتحفظ الرطوبة فى الصيف .. وكان القبة الى فى سقف الحجرة  
تساعد على تكييف الهواء ، لانها بتعكس اشعة الشمس .. القبة دى  
بيستعملوها الاهالى فى اسوان ، لكن مايعرفوهاش هنا .. ولا فيشى  
مهندس فى الدنيا يقدر يبنى القبة بالطريقة دى .. لكن اهالى اسوان  
تحدوا المهندسين ، وعرفوا يبنوها .. ملشان كده جيت فعال  
مخصوصين من اسوان وعملوا سقف القرية كلها بالقبة ..  
ومررنا بخبطة كبيرة للمواشى والدواب . يخضع فيها الاهالى  
حيواناتهم ليلا ، حتى لا تنام معهم فى نفس المكان الذى يرقدون فيه ..  
وقال المهندس مشيرا الى الخبطة :

— دا الجارج بتاع القرية .. كل واحد يسوق فى آخر الليل  
حمارة او جاموسه للجارج ويسببها ، ويدرج بنام فى بيته التضيف  
وكتت الهم من التعب والجوع ، بعد ان فرغت من جولتنا ، والمهندس  
يزداد نشاطا وحيوية كلما مر باحدى النشآت التى صنعها واشرف  
على بنائها .. وكان يشعر بالفخر والزهو ، لانه استطاع ان يبنى  
مدينة . ولانه سيجر حياة ناس بدينين بابنيته التى اقامها ..

وعدنا الى بيت المهندس ، وجلسنا حول مائدة انيقة وتناولنا الطعام  
مع السيدتين المجوزتين ، ولم يكف المهندس عن حديثه عن القرية ،  
وكيف اثارت اهتمام مجلات الهندسة والفنون فى العالم كله .. كان  
يقول فى حيرة :

— انهم يتحدثون عنى فى العالم .. ولا احد يهتم بمشروعى فى  
مصر . ماذا اصنع يا ربى . لو اهتموا بمشروعى لتحولت مصر فى  
عشر سنوات الى جنة ..

ولما فرغنا من الفداء ، كان همى الاول هو ان نتحدث مع المهندس  
عن مهمتى .. لم اكن اريد منه ، اكثر من ان يرسل معى رجلا من رجاله  
الى اهل الجبل ، لاسأل عن حسين على مقدم الشكوى وابيا التحقيق  
بذواله ..

وما كاد المهندس يسمع عن رغبتى ، حتى انتفض قائلا :  
— مستحيل يا عزيزى ابعت ممالك واحد من هنا .. بمجرد  
مايشوفوك مع واحد من رجالتنا ، حيانك تبقى معرضة للخطر

قلت له :

— لازم اروح هناك ..

— روح بنفسك .. اضمن لحياتك ..

— اروح ازاي ..

ففكر طويلا ثم قال فى صوت خفيض :

— صحيح .. المسافة طويلة ، وانت محتاج لمربية .. لسكنهم  
مارفين مريباتنا اتصحك تروح فى عريية تامة لمصلحة الاثار .. هلى  
كل حال احنا المصر .. استنى هنا ليكرة الصبح ونشوف طريقة  
تروح ، بيها ..

وانزعجت لفكرة البقاء .. وتذكرت ملابسى التى نسيتهها عند  
صديقى وكيل النيابة ، فاحتججت بانى بغير ملابس ، واننى اريد ان  
اعود الى الاقصر ..

فنادى المهندس على « السفرجى » ، وامره باعداد اللورى لينقلنى  
الى الشاطئ ..

وفوجئت بالسفرجى يقول :

— اللورى متعطل يا سادة البيه ..

وصاح المهندس :

— براوو . عظيم . اذن تبيات الليلة معنا . وتلب شطرنج مع  
بعض ..

وشعرت بنصبة فى حلقى .. وبلمت ريقى لاستجمع شجاعتى . كنت  
اعرف ان القرية معرضة للهجوم فى هذه الليلة .. الهجوم الذى توعدت  
به المرأة الفرنسية ..

ولم استطع الكلام . خفت ان يفضح صوتى ما احس به من خوف  
وفزع ..

وبعد لحظات كنت اجلس مع المهندس وامامنا رقبة شطرنج  
وقى اثناء اللعب ، روى لى المهندس اقرب قصة سمعتها فى حياتى عن  
اهل الجبل ..

كان يروونها ونحن نتنظر الهجوم الليلى ..

والمهندس وضيوفه الخائفون ، وبقيّة الدور خاوية تقيم فيها  
الاشباح ، الجامع بقير مصلين والمدرسة بغير تلاميذ ، ودار المندبة  
بلا عمدة ..

وامجب ما في انتصار العمدة ، انه ترك اهل الجبل يعملون في بناء  
القرية ليحصلوا على يوميتهم من القروش القليلة آخر النهار .. حتى  
اذا فرغوا من بناء القرية ، واخذوا نقود البناء رفقوا السكنى فيها  
ودامت المعركة بين المهندس والعمدة لسنوات . المهندس يستنجد  
بالبوليس .. ويبلغه كل ليلة من حادث ارتكبه اهل الجبل ضد  
السياح ..

ويروى المهندس للبوليس كيف ان سمعة البلاد ضاعت بسبب  
اعمال النصب التي يرتكبها اهل الجبل ، وكيف ان اراحة هؤلاء الاهالي  
من مكانهم ، يتوقف عليه مستقبل البلاد ، وسمعتها الدولية ..  
ان المهندس يسمع من ضجة قوم في « ونتر بالاس » بين يوم وآخر ،  
عندما يعود زجل محترم ، سفير اجنبي ، او سائح امريكي لمليونير الى  
الفندق ، ويختل باحد علماء الآثار في ركن قصي ، ثم يقول له هامسا :  
- عندي لك مفاجأة مذهشة ..

ويتلفت السائح المليونير حوله ، ثم يهمس في اذن عالم الآثار :  
- اليوم وانا اشاهد الآثار تقدم مني احد الاهالي وايرز لي من جيبه  
خفية تمثالا ثروانيا حقيقيا .. اتم يرقون الآثار بمئتي البسطة ..  
وساومت الرجل . حتى استطعت ان اشتريه منه بثمان رخيص جدا  
ويسال عالم الآثار :

- بكم اشتريته ؟

ليجيب الرجل :

- دفعت فيه مائتي دولار . تصور ؟ . انث ثروعتي مصنوع من  
آلاف السنين لثمة مائتا دولار فقط .. ان متحف المتروبوليتان في  
نيويورك يشتريه مني بربع مليون دولار .

ويطلب العالم الاثري رؤية التمثال ، ويتلفت السائح من جديد ،  
ويخرجه من جيبه في حذر شديد ..

وسرعان ما يصفر وجهه ، وهو يسمع عالم الآثار ، يقول له في  
سخوية مزعومة بالشفقة ، ان التمثال مقلد ، وانه من صناعة اهل

## الفصل الثالث

كنت استمع الى المهندس يشفق كبير وهو يروي لي عن معاركه مع  
عمدة الجبل ، وينقل في نفس الوقت قطع الشرطج على الرقعة بيثنا  
ونقل المهندس ولبيره وقال لي بصوت مليء بالتحدي :

- كفى ذلك ..

وفاظني صوته ، ودفعني الفظ الى احساس مفاجيء بان انشكك  
في حقيقة ما يقول .. تغلبت على طبيعة المحقق الذي يستريب في كل  
ما يرى ويسمع ، ولكنني لم انصح له عن التحول المفاجيء الذي شعرت  
به نحوه .. تركته يسترسل في قصته ، وانا استمع اليها .. لا على  
انها حقيقة . ولكن مجرد وجهة نظر . رواية يروها خصم عن اعدائه  
واكمل المهندس قصته في اسهاب .. كان يروها بتفاصيل دقيقة ،  
كانه يروي فيلما شاهده او يلخص لي رواية قراها .. كان يحكي دون  
ان يخطر بباله اني اشك في ان خياله يشطح ، وانه ربما كان من هواة  
تأليف القصص ..

\*\*\*

كانت المعركة بين المهندس وعمدة اهل الجبل مريرة طويلة وقف  
الخصمان فيها يناضلان في غير باس . احدهما تعلم الفن في فرنسا  
وتتكم اللغة الفرنسية بطلاقة ، والثاني رجل عجوز ماهر ، يحارب  
بالفطرة والحكمة التي ورثها من اجداده الذين لم يغادروا الجبل  
ابدا ..

وانتصر المهندس فاستطاع بناء القرية النموذجية ، ضد مقاومة  
اهل الجبل . واجب ما في انتصار المهندس ، هو ان الذين بنوا القرية  
النموذجية هم اهل الجبل انفسهم

وانتصر عمدة الجبل ، لانه قاد الاهالي في حركة مقاومة ضد النزول  
من الجبل الى القرية ، وترك القرية مهجورة ، يسكنها خفراء وحراس ،

الجبل . يستمنونه بالمعشرات في اليوم الواحد

« ويثور السائح ، ويزار كالفضيحة الجروحة ، ولكنه يتكتم في النهاية الفضيحة التي لحقت به .. قد هذا أحد الالهائي البسطاء بذكائه وثقافته ، واخذ منه ثروة لا يستطيع أن يطالب بها أمام البوليس ... اما المهندس فكان لا يتكتم الفضيحة ، ويبلغها للبوليس ، ويكتب التقارير عنها للمسؤولين ، متوعدا ومهددا سبعة البلد بالضياع ..

وفي الجبل يجلس العمدة ورجاله ، ينتدرون بغضب المهندس وبما حصلوا عليه من مال من السياح ، ولكنهم لا ينفكرون ابدى اقامة مسكن غير الكهوف التي يرقدون فيها . لا كوخ ، ولا « حص » ولا عشة ، او بيت من الطين ، ان الكهوف هي الدواخل الطبيعية للقبور الترموية التي لم تكتشف بعد . وكل اسرة لا تفكر في انها تسكن في كهف بل هي تقيم على باب كنز . على باب الجنة

وعندما يتقدم الليل ، تجتمع الاسرة ، رجالا ونساء واطفالا لينقبوا داخل الكهف ، يحضون شهورا وسبعا ، بمعاولهم البدائية ضاربين في الصخر الصلب ، مغامرین بحياتهم ، متحدين الطبيعة في صورة الحجارة الضخمة التي تقف بينهم وبين ما يريدون . متحدين لعنة الفراغة التي يفسرون بها قتلهم الذين يموتون تحت الحجارة التي تسقط فوقهم أثناء الكحت متحدين مكر الفراغة ودهاهم في حماية قبورهم .. يثر بلا قرار ، او هاربة سحيقة تنشق فجأة أمام من يضرب المخسر او ارض زلقة تنحدر الى جنب سحيق ، او سقف ينهار على كل من يحاول اقتحام القبرة ..

انهم متمسكون بمكانهم ، يرتضون تحسين حياتهم من اى طريق .. لان احلامهم سيئة ، انهم يحلمون بالذهب الكثير . لا بالقليل الذي يرضى به الناس الماديون ، اصحاب الاحلام المادية ..

وكلما احس العمدة بالياس يدخل في نفوس الرجال ابتكر وسيلة لايقائهم في الجبل ، حتى لا يهجرونها

وهناك اكثر من سبب يدفع الرجال الى هجرة الجبل .. عندما يكحتون . ويكحتون . لسنين طويلة ، دون ان يجدوا شيئا

عندئذ يرتفع صوت أحد الرجال اليائسين :  
- ذهب المساحيط مرسود .. ما حوالش الا الموت ، وجحيط

الايدى .. مكتوب علينا الفجر يارجالة ، مالنش منه خلاص  
وفي صباح يوم ، تستيقظ اسرة هذا الرجل اليائس فتجده قد اختفى ..

يسافر الرجل ماشيا على قدميه ، او راكبا في مركب نيلي الى الشمال ، حتى يستقر في مدينة ، ويمثل في بناء البيوت والعمارات .. ويتزوج الرجل امرأة اخرى ، وينسى اهل الجبل وينسى زوجته الاولى وابولاده منها الى الابد ..

ويقام العمدة هذا الياس ، بين وقت وآخر ، فيجمع اهل الجبل ويقول لهم :

- مغيش ليلة يا رجالة . اخطف فيها نوم ، الا واشوف المنام بعينيه . خدني الشيخ في دراهه ، وطلع بي الجبل وعمدينا في العتبة ، والشيخ يحيط في وداني كلام زى الفسل يارجالة ولمس يايده الجبل . واتفتح جصادى نور . وشفت الكنز ذهب في جدور . وجدور على صواني . وصواني عليها اكل . وشفت يارجالة . نسوان ع الحيط . ويط . وغوازي . وجيت امد ايدى . زعج الشيخ . وجال . وزعه ع الرجالة

ويذهب حماس النبيلة وهم يسمعون حلم عمدتهم المعجوز ويبدو لهم الكنز قريب المال ، ما هي الا خربة او ضربتان بالقاس في المكان الذي اشار اليه الشيخ ، وتنفث طاقة الكنز

وتستعيد النفوس التي اصابها الياس تماسكها ، والذين يفكرون في الهجرة يمدلون من قرارهم ، والذين هجروا الجبل فعلا ، وذهبوا للعمل في المباني في المدن القريبة والبعيدة ، وجاءوا لزيارة اهلهم لفترة من الوقت ، يسمعون كلام العمدة ، فيمدلون فترة اقامتهم ، وتجتمع النساء لتتشاروا في مصير الكنز ، بعد ان يحصلوا عليه ..

تقول واحدة من النسوة :

- ح نفتري بيت على الشط ، وقد آتني نزرعهم ونعيش عيشة الاشراة

وتقول ثانية :

- ح ناكل اللحم ، ونلبس الحرير ، ونسولوا عيال شداد

وتقول ثالثة :

— اخويا كيفه اروح معاه سيوط . اخذهم على مرته . دلوقت بيحى  
معاه ياخذ نصيبه م الكنز .

وتتهد امراة عجوز وتقول :

— الى يجسدك يارب مايخبش ..

ويسرى الكلام في دماء اهل الجبل ويختلط بانفاسهم ولحمهم  
وعظامهم ، ويتحول منام العدة الى يقين جارف ..

وفي فجر يوم ، وقد فرغ عدة القبيلة من صلاة الفجر . ياتى اليه  
احد الرجال لامنا ، ويقول له :

— لجينا الكنز .. الفاس بترن .

وينهض العدة من قعاده ، ويرود في انفعال :

— لجيتوا الكنز . الفاس بترن ؟

فيخبره الرجل بما حدث ..

— جمدنا ندج . وندج . والحجر مايلين . ندج وندج ترد الفاس  
في ايدينا . لا بطلنا والرجالة همدت . وادى عاشر ليلة . وشح الفجر ،

واحنا واجفين جصاد بعض ماينسمش لنا نطج . جامت الرجالة  
تصلى . وانا خدت الفاس ، وجمدت اشرد ، بيها . ملت بالفاس جيمة

شبرين ودجيت . لجيت الفاس بترن . ودجيت . لجيت الفاس  
بترن . انا انجيت .

فيسمع العدة على وجهه ويقول في اشراق :

— دا الكنز ياراجل ..

ويجمع العدة اهل الجبل ويحدثهم :

— انا مندى كلام لكم وانتم كده جمية . من يوم ربنا مانشانا هنا  
.. واحنا مستنظرين .. مستنظرين الحجر يتفتح . والمخبي بيان

.. وكل ماتطلع علينا سمس . بتكر عيالنا ، وجبل النجمة في ايدينا .  
ويمعى الحجر ماينفتحش .

وترتفع صيحات الرجال والنساء :

— ابوه والله يا عدة ..

ويستأنف العدة كلامه :

— الفجر اليوم . رنت الفاس في الصخر . وظهر الكنز وجصدى  
م الجمية دى . تنفع . تنصاف الجلوب . مايناش صغير . ولا كبير .

اليوم يا رجاله كمثل يوم الحساب لا عركة تجرى ولا طمع يعمينا ..  
الكل ياخذ . والكنز يتوزع بعدل الله  
وتصبح امراة :

— غرضى في خلخال يا عدة .

وتصبح اخرى :

— وانا غرضى في كردان ..

فيرتفع صوت العدة فوق اصواتهم :

— الكنز يتوزع بعدل الله . النهار طلع . والسياح زمانهم جاينين .  
الليلة الجاية بعد المشا . تتجمع الرجالة . والنسوان يملوا عيالهم .  
وتتموا الكحت باذن الله ..

ويبقى اهل الجبل نهارهم ، مع السباح وعلماء الانار : وهم يكتمون  
انفعالهم الشديد ، حتى اذا هبط الليل ، وعاد الغرباء الى الشاطئ  
الشرقى . هجموا بمعاولهم يضربون الجبل ضربات محمومة .. وهم  
مطمئنون تماما الى ان احدا لا يعرف مرهم ..

ويصرخ احد الرجال فجأة :

— الحجر ح يجمع .

فيتراجع بقية الرجال . ويتقدم واحد منهم يضرب بمعوله الضربة  
الاخيرة ، ويقع الحجر . ويثور الغبار ، وتهول النساء الواقفات عند  
مدخل الكهف الى الداخل ليشهدن فتح الكنز ..

ويرتفع صوت العدة :

— فتحوا منيكوا يانسوان . البير بان . ويلقى بحجر صغير في هوة  
سحيقة . فلا يسمع للحجر صوت . انه بثر بلا قرار

ويامر العدة :

— جربوا النور ..

ويدخل الرجال تتقدمهم مصابيح الغاز الى داخل المقبرة ، وهم  
يسيرون في حذر شديد بحذاء البئر . يتحسسون خطواتهم شبرا  
شبرا ..

ويردد احد الكهول ممن لا يستطيع التقدم :

— نصيبى .. نصيبى يارجالة

ويصبح رجل من الداخل في فوج :

— الرسومات ع الحيطه ياعمة ..

ويصبح آخر :

— دى مجبرة اشرف ..

وتنهت النساء الواقفات وراء الرجال :

— وين الكثر يا عمة . ليجتو الكثر . خلينا نعدى .

ويصل العمة الى داخل المقبرة ، ويرفع الصباح ملحوايه فى كل

مكان ، باحثا عن التدور الملوقة بالذهب ، والصواني المحملة بالطعام .

ويدرك بخبرته السابقة ، وتجاريه الماضية ان المقبرة مسروقة ، سبقه

اليها اجداده من نفس القبيلة واستولوا على مافيها من كنوز

ويترك العمة مكانه ، ويتجه الى الخارج وهو يجيب بصوت حزين

على الاسئلة التى يطرحونه بها :

— مالمجيش ذهب .. مالمجيش مسايخيط .. المجبرة مسروجة

ولا يصدق احد كلام العمة . الرجال يضربون الحائط فى اى مكان

بمعاولهم . يضربون فى جئون باحثين عن حجرة سرية داخل المقبرة

والنساء مصممات على ان يرين باعينهن ان الذهب غير موجود

ويذهب العمة بعيدا : وقد طغى عليه حزن قاتل ، وبهبط الجبل ،

ويجلس وحيدا على الارض ، يفكر فى المسؤوليات التى سيواجهها عندما

ترتفع شمس اليوم التالى

ويصاب اهل الجبل بشكسة من الياس الحزين ..

وفى الصباح يتغير حديث النساء ..

واحدة تقول :

— ابو سعد انهذ الجبل عليه .. وسعداوى وجع فى بير .. ورضوان

خطفته المسايخيط . ولا حصولوش حاجة . لا ذهب . ولا جواهر .

مايش وراء الكحت الا الموت

وتقول ثانية :

— الجبل غدار بيحصف العمر ..

والمرأة التى كانت ترفض اللهاب الى اسبوط لتخدم زوجة اخيها

تلعن وترشح وتفكر فى السفر الى اسبوط ..

اما الرجال فتسرى بينهم نفمة جديدة من الكلام ..

يقف رجل وسطهم ويقول :

— كيف يا رجالة مكتوب علينا الفجر . رزج الراجل فى دراهم .

طول ماقى ايدى فاس . انا يارجالة محبطلش . الرزج مايمصاش

ع الراجل الشديد . انا نازل بنات الهندس

ويقتنع الرجال بما يسمونه . فيمضون الى مهندس القرية

النموذجية ؛ ويقبلون على العمل فى بناء القرية التى لا يريدون سكنها

كل ما يفكرون فيه ، هو القروش الثقيلة ، التى يتبنونها فى آخر

النهار

\*\*\*

ويدرك المهندس من اقبال اهل الجبل على البناء ، ان مقبرة جديدة

قد اكتشفت .. وانها كانت مسروقة ، فلم يجدوا فيها شيئا ..

ويكتب تقريرا عاجلا ، منددا بضياع آثار مصر الفرعونية

وتسرى الاشاعة بين علماء الآثار . اهالى الجبل قد اكتشفوا مقبرة

جديدة . اين ؟ لا احد يدري . ان مئات المقابر مازالت مخبأة مجهولة

فى جوف الجبل . انهم واثقون من ذلك ولكن كيف يصلون الى هذه

المقابر ، بنفسى السرعة التى يصل بها الاهالى . كيف يتقلب منام

العمة ، على كتب الآثار ..

ان الشيخ الذى يأتى للعمدة فى المنام ، ولى من اولياء الله له مقام

صغير عند سفح الجبل . تتبرك به نساء القرية ، ويستلهمه الرجال

فى عملهم ..

ويجلس علماء الآثار ، يتداولون ويتناقشون اسطورة هذا الولي

ذو الكرامات ويؤكد واحد منهم قائلا ، انه ليس وليا من اولياء الله .

لقد كان احد جدود هذه القبيلة . عاش منذ اكثر من مائة عام ، وكان

يارما فى اكتشاف المقابر الفرعونية ، يشم مكانها بانفـه ، واذا ضرب

بنفـسه فلابد ان يصل الى مقبرة ولا بد ان يجد شيئا يبيمه للمبرين

والمهيرون كثيرين . بينهم العلماء والسياح . العلماء يأتون الى

الجبل ليجتو من الكنوز من اجل معرفة الحقيقة والتاريخ ولكنهم

يشـر ، لا يستطيعون مواجهة الذهب دون ان يفكروا فى شىء آخر غير

العلم . الذهب يشـر طمع الانسان ويحول العالم الاثرى الى مهرب ،

ويحول الباحث المنقب الى لص ، ويحول السائح الى مغامر .. حتى

الفنان يرى التشال الفرعونى فيتأمل ما فيه من فن لحظات ، ثم يفكر



كنوز .. خطنوها من زمان .. هو في الجبل دج .. انا كبرت  
هنا ، وطول عمرى اسمع الكلام ده .. ابويا تحت الجبل خترين ..  
والترين بحر عشرة .. سرداب طويل .. ووجع الجبل عليه ، جم  
المساكر ياخدوه مجمدش .. مات ..

فيهر العملة راسه ويقول :

- ومن يومها .. وانت بتترعب م الجبل .. والانارات ..

ثم ينظر في الرجال من حوله ويتهدج صوته قائلا :

- راجل ورا راجل يموت ماحدش منا فات امله .. احنا  
جاعدين هنا ، لما تفرج علينا كلتنا ..

واصبح العداء سائرا بين القاول والمعدة ، وانضم الاهالى الى  
معدتهم الفقير .. وانضم القاول الى المهندس وتحول الى واحد من  
اتباعه ، وبقيت القرية بلا سكان ، وظلت المعركة مستمرة ..



في قيمة الذهب المصنوع منه التمثال لساعات طوال ..  
كان ولي الله في حياته ، يجد دائما من يبيعه الآثار التي يحصل  
عليها .. ثم اختفى فجأة ..

وسرت اشاعة في الجبل .. انه كان يضرب بنفسه ليفتح احد  
القابر ، عندما انتش الجبل ، وانبعثت من داخله اصفاء ساحرة ،  
وتقدم الرجل الى مصدر الضوء ، فرأى في القبرة فراشة قد  
عادوا الى الحياة .. الملك الجالس على مرثه والى جانبه حاشيته ،  
وامامه الراقصون والراقصات ، والموسيقيون والمنشدون ، وعلى  
الوائد طعام طازج شهى .. كان البعث قد احيا اهل القبرة واستقبلوا  
الرجل مرحبين ، واستضافوه ليعيش معهم في حياتهم الثانية بعد  
البعث .. ولم يعد الرجل من القبرة ولا يعرف احد حتى اليوم  
مكانها ، واقاموا له ضريحا ، لانه ولي من اولياء الله .. حقق المعجزات  
والكرامات ..

ويقول عالم الآثار .. انه لا يصدق هذه الاشاعة ، لانها خرافة ..  
وهو يعتقد ان الرجل اختفى لانه عثر على اثر نفيس فهرب به  
بنفسه ، وباعه بثروة طائلة ، واصبح واحدا من الاغنياء في مصر ..  
او ربما في الخارج ..

اما اهل الجبل فهم متمسكون بقصتهم .. ويؤمنون بجدهم الاكبر  
ولي الله ، الذي سينقدهم من الفقر يوما ، عندما ياتي لواحد منهم  
في المنام ويرشده الى كنز كبير ..

ولما هجر المهندس عن افئاع اهل الجبل بسكنى قريته النموذجية  
وان يتخلوا من احلامهم في الكنز .. لجأ الى أسلوب التفرقة  
بينهم .. اختار واحدا منهم ، واعطاه مالا اكثر من غيره ، وجعل  
منه مقاولا للأفكار .. اذا ارادوا ان يعملوا في البناءات ، جاءوا من  
طريق هذا المقاول ، الذي يتقاسم معهم يوميتهم ، ومع مرور  
الوقت ، انرى المقاول ، لبيدا يحرض امله على النزوح الى القرية  
النموذجية والسكنى فيها ، وراوده جلم المصودية في القرية  
النموذجية ..

كان المقاول يقف بين اهل الجبل قائلا :

- كنز .. يا مجانين .. كان جدودنا اشطر .. راجل ورا راجل  
منكم يموت .. والانارات زى ماهية .. حجلة .. مابجش نخبي

## الفصل الرابع

انقضى الليل ، ولم يقع الهجوم المرتقب على القرية .. وكان المهندس بعد أن فرغ من قصته عن أهل الجبل قد ذهب ونام على سرير « عنجريب » فى حجرة ضيقة ، ليس فيها غير مقعد ، ومراة مثبتة بسمار فى الحائط ، أما انا فقد أمضيت ساعات الليل الأخيرة ، وكل حواسى مركزة فى اذنى ، انظر وانتفس وأفكر بأذنى .. ولم أسمع أى صوت .. لا صياح ولا همس ، ولا نباح كلاب ولا أى شيء .. كان الليل اخرس لا يفصح عما فى داخله ، انه صمت قبور الفراغة ، صمت موتى .. ماتوا منذ آلاف السنين وطلع الفجر ، فتبينت مع ضيائه الاولى انى مشاؤل فوق مقعدى ، لا افعل شيئا ، وأحسست انى قضيت وقتا طويلا . وأنا كالجماد .. لا يدور فى راسى سوى الفراغ ، ومضت ساعة أخرى ، انتشر فيها الضوء الداخلى من النافذة .. وازداد احساسى بالاجهاد والتعب ، وقررت ان أحسم موقفى ، وأقرر ماذا انا فاعل اليوم ، هل اعود الى الاقصر .. ام اصمم على الذهاب الى أهل الجبل مجازفا بحياتى ، وقبل ان استقر على رأى ، هرب عقلى من التفكير فى المشكلة .. فأنغيت ونمت ..

واستيقظت فجأة على صوت اقدام تروح وتجيء خارج الحجرة ، فتحت عينى ، فوجدتنى ما زلت جالسا على المقعد ، وأمامى الشطرنج الذى كنت اللعب به مع المهندس ، والسرير « العنجريب » لم أمسه والاعطية فوقه مرتبة نظيفة ، ومسحت وجهى بكفى ، وقمت وأنا أشعر بمفاصلى تنكسر وخرجت من الحجرة .. ورايت المهندس يقف نشيطا وسط حوش البيت ، وقد تدثر بعباءته الخضراء .. وحياتى ثم قال ضاحكا :

— اللورى جاهز .. عشان يوصلك للمركب ..

فقلت له على الفور :

— اللورى حيوصلتنى الجبل ..  
فنتظر الى ~~طويلا~~ فى غير فهم ثم قال  
— انا قلت لك دا خطر عليك ..  
فاجيته فى عصبية :  
— خطر .. خطر .. زى بعضه ..

كان شيء فى داخلى يرغمنى على الكلام .. هل فكر عقلى واتخذ قرارا وأنا نائم لست أدري ، كل ما اعرفه ، انى الححت فى عنناد على الذهاب فورا الى الجبل ..  
وهز المهندس كتفه يائسا ، ونادى سائق اللورى فجاء نفس السائق الذى اوصلنى الى القرية ، ونظر الى فى حيرة .. وقال له المهندس متاثلا :

— توصل اليه لعمدة الجرنه ؟  
وبان التردد على وجه السائق ..  
فصحت فى تسبق :

— انا رايح ضرورى .. حتى لو مشيت لحد هناك ..  
كنت نائرا بلا مبرر .. ثورة من فقد اعصابه ، ويريد ان يواجه باى ثمن هذا الخطر الذى يخيفه ويفزع ، لانه لم يعد يطيق الانتظار ..

وقال المهندس للسائق فى هدوء :

— اسمع يا سيد انت توصل اليه قريب من الجرنه ، وتستناه ..  
ومتزلزل من اللورى لحد ما يرجع .. انت فاهم متزلزل من اللورى ..

فاحتج السائق :

— كيف انزل يا سعادة اليه ..

كان الرجل يحتج بصوته ، وبإشارات يديه ، ويتحرك فى نفس الوقت نحو اللورى لتقلى الى الجبل ..

\*\*\*

اندفع اللورى فى طريق وعر ، يرتفع فوق هضبة صخرية تبنت فيها الحشائش فى غير نظام ، والسائق صامت لا يدري ماذا يقول ، ولعله كان يفكر فى عدم اكترائه بى ، عندما رأى لأول مرة .. وظن

انى احد الموظفين الصغار الذين جاءوا لزيارة معاون القرية  
التمودجية ..

وقلت للسائق فجأة :

- انا سمعتك امبارح بتتكلم مع الراجل اللى كان راكب معنا عن  
الست الفرنساوية ..

فاجاب فى وجود دون ان يلتفت الى :

- ايوه يا سعادة اليه ..

وضغط على البنزين ، فازداد اندفاع اللورى ، واشتد ارتجاجه  
كانه يتمنى ان يقبل بنسا اللورى ، حتى لا تصل الى الجبل ، او  
يجاذبني الحديث حول الست الفرنساوية ..

وسمعت على سؤاله :

- كنت بتقول ان الرجاله بيروحوا فى بيتها بالليل .. قصدك  
ايه ؟

وسكت الرجل ولم يجب ، واطلق تغير اللورى ، دون ان يعترض  
طريقنا احد ..

وصحت فيه :

- هيه .. قصدك ايه ؟ ..

- ولا حاجة يا سعادة اليه ..

كان المسكين فى مأزق ، وكنت عنيدا كالطفل فى سؤالى ..  
والحكت عليه :

- الرجالة بيعملوا ايه فى بيت الست الفرنساوية بالليل ؟

- معرفش يا ييه ..

- يهربوا الاثارات عندها ..

والثفت الرجل الى رغما عنه ، حتى كاد اللورى يخرج عن طريقه ،  
ونظر الى فى فزع ، وهتف :

- دا كلام ييجولوه .. ما اعرف ان كان صح والا كذب

وشمرت بالارتياح .. اذن فهناك اشاعة على الاقل ، حول حقيقة  
هذه المرأة الفرنسية ، انها اشاعة تفسر شدوها ، وانا اشك كثيرا فى  
الشدود .. ولا ارتاح له ، واتوقع دائما شيئا وراءه .. انى على  
استعداد الان لتقبل كل التصرفات الشاذة لهذه المرأة ، نفورها من

الباثى التمودجية ، وكرهيتها للكهرباء ودفاعها عن الطبيعة البدائية ..  
ورغبتها فى الاحتفاظ بالاهاى كما هم ، وملابسها الغريبة ، كل  
هذا يخفى وراءه مصلحة واضحة ، هى الاثار التى تحصل عليها من  
الاهالى ، وتهربها الى الخارج ، انى لا املك دليلا واحدا عليها ،  
ولم اسمع انها مباشرة واضحة ضدها .. ولكن عقلى يرتاح لهذا  
التفسير .. ولا يرضى بانها مجرد فرنسية ضاقت بمدينة باريس ،  
واحبت الجبل فجاءت لتعيش فيه بعيدا عن فساد الحضارة  
وزيفها ..

ربما احبت الجبل فعلا .. احبت رجال الجبل .. ربما كانت  
تستمتع برجولتهم فى الليل ، انى ارتاح لهذه الصورة ايضا فرنسية  
شقراء ، بضة ، ترتدى ملابس الاعرابيات ، وعمامة مراكشية ،  
وتعطى جسدها لرجال فنول .. لقاء كنوز الفراعنة . ان رجال الجبل  
لا يثرون ابدا ، الفرص الحصول التى يحصلون فيها على اثر فرعوى ،  
لا تتيح لهم الحصول على المال الوفير .. انها تتيح لهم فقط الحصول  
على جسد فرنسية شقراء ..

واعجبتنى هذا المطلق

وسالت السائق من جديد :

- اظن رجالة الجبل ييجوا الست الفرنساوية ..

وابتسم السائق ويذا عليه الارتياك .. ولكنه اسرع بقول :

- حد الله بينا وبين الحاجات دى .. انا فى حالى يا ييه ، ماليش  
دعوة بيها ..

فقلت له :

- بيتخافقوا عليها .. يقنلوا بعض علشانها ..

وتجهم وجهه وقال :

- ليه يتعاركوا يا ييه .. كلهم ولد هم .. يجنلوا الغريب

مايجنلوش بعض ..

ورفض الرجل ان يضيف شيئا آخر .. وكلما الحكت فى

سؤاله ، ورد قائلا « انا فى حالى يا ييه » ..

واشرف اللورى على سطح الهضبة ، وظهرت كهوف امامنا فى  
سفح الجبل ، وقبة وحيدة لضريح ، لا شك انه مقام الشيخ الذى

تنبوك به الجرنه ..

واوقف السائق اللورى ، ونظر امامه فى قلق وحذر ، ثم اشار الى بعيد ، وقال :

- العمدة .. هناك ها ..

ودقت النظر امامى ، فلم المح شيئا .. فسألته بقلب واجف :

فأشعار بيده وتبعته اتجاه يده ، فرأيت رجلا واقفا وقى يده بندقية ، ممسكا بها ولكنها غير مصوبة نحونا ..

ولم أقل شيئا .. هبطت من اللورى .. ومضيت فى هدوء نحو الرجل ، أسير نحوه كالنوم ..

كان الرجل يقف صامدا كتمثال فرعونى .. ينظر نحوى فى جود ، والمسافة بينى وبينه .. تقترب شيئا فشيئا ، وأنا لا اكاد اراه بعينى الزائفتين ، وقدمائى تتحركان بغير ارادتى ، وطين يمدى فى راسى ، حتى أصبحت على مبعده عشرين مترا منه ، فاذا به يرفع بندقيته بسرعة خاطفة ، ويصوبها نحوى ، ويضع اصبعه على الزناد ..

ووقفت مكانى . صلبا لا اقوى على الحركة ..

ومضت قرون من الزمان ، والرجل لا يقول شيئا ، وهو يصوب فوهة بندقيته نحوى ، وأنا واقف بلا حراك فى مكانى .. لا أدري كيف أقصرف ..

وأخيرا صرخ الرجل :

- انت مين ؟

وبلعت ريقى وجأهدت حتى أحصل على أنفاسى ، ولم أقصر على الكلام .. كانت عيناه صارمتين ، ترسلان وميضاً من البريق الاسود ..

وسمعت الرجل بندقيته ، وصرخ من جديد :

- انت مين ؟

وخرج منى صوت غريب ، انكرت أنه صوتى .. كان الصوت يقول فى ذلة مخيفة :

- أنا عايز حضرة العمدة ..

قلت « حضرة العمدة » كما لو كنت أقول « حضرة صاحب الجلالة » ، وفكرت فى أن أستدير وأجرى نحو اللورى ، ولكننى

خشيت أن التفت ورائى .. كانت الرصاصة ستنتطق حتما وتستقر فى راسى أو قلبى ..

وخف صلاح الرجل ، وسألنى :

- عايزه ليه ؟

قلت له :

- أنا جاى مخصوص من مصر علشان أشوه ..

ونظر الى الرجل فى ارتياب .. ثم التفت الى جانبه ، ولحمت فى تلك اللحظة جسدا ممددا على الأرض فوق « برش » من الخوص .. كان جسد رجل نائم ..

واقترب الرجل منى ، وفوهة بندقيته تتقدمه ، حتى أصبحت على قيد بوسة من قلبى ، وعينائى مستقرتان على اصبعه الذى يكاد يضغط على الزناد ..

وقال الرجل فى تحد :

- العمدة نايم ..

وكدت أستأذنه فى الانصراف ، ولكننى خشيت ألا يسمح لى ، وزاد اطمئنائى عندما علمت أنه ليس العمدة ، وأن النائم هو العمدة .. أردت أن أتفاهم مع ذلك النائم .. نظرت الى الجسد الممدد على « البرش » فرأيت رأسا انتشر ليه الشميب ، ورأعتى منظر مسحان طويل كالنمايين ترمح حول رأسه .. ونظرت تحت قدمى فرأيت سحالى أخرى كثيرة ، فشببت على أطراف أصابع قدمى وأنا العن غيبائى وجبئى الذى دفع بى الى هذا المكان ..

وتوسلت للرجل :

- أعمل معروف .. لازم أكلم العمدة أنا سافرت وجيت مخصوص من مصر علشان أكلمه .. الحكومة بعثانى له ..

وتردد الرجل قليلا .. كان يفكر فى إيقاف العمدة ، وهل يستحق مثل أن يقطع العمدة من أجله نومه العميق .. كانت الشمس ساطعة ، والمكان خاليا من الاهالى .. انهم ولا شك قضوا الليل كله يكحتون الجبل ، بحثا عن الكثر .. فقاموا بالنهار ..

وفضل الرجل أن يوقظ العمدة على أن يقتلنى ، فخفض بندقيته ، واتجه الى العمدة ، وهمس بصوت رقيق حنون عجبت كيف يضدر منه :

يا عمدة .. يا عمدة ..

ورفع العمدة رأسه ، ونظر الى الرجل فقال له وهو يشير الى :

— راجل من رجالة المهندس عاين يكلمك ..

وفوجئت به يصفتى بانى من رجالة المهندس . لقد اوضحت له انى جئت من مصر ، وان الحكومة ارسلتنى الى العمدة .. ولكنه كان وثاقا من كذبي ، ولم يتظاهر بأنه يصدقنى .. كان كلامه للعمدة صفة موجبة الى .. الى ذمتى وأمانتى .. ولابد ان اللورى الذى حملتنى الى هنا هو الدليل القاطع الذى استند اليه فى اننى احد رجال المهندس ..

وإدار العمدة رأسه وهو ما زال راقدًا فوق البرش ، متكئا على كوعه ليرفع رأسه قليلا ، ونظر الى نظرة عميقة .. بعينين ضيقتين جسوريتين ، ومد يده اليسرى نحوى ، كأنه يطلب منى أن أساعده على النهوض ، وتقدمت منه . ومددت له يدي ، فقبض عليها ولم ينهض من رقدته . جذبتني بشدة فوقعت على الأرض الى جسانبه وفرت السحالي مذعورة من حولي .

كان العمدة المعجوز رجلا قويا ، ودبت القشورية فى بدنى ، كنت ارتعد من كل شيء . من البندقية ، والعمدة والسحالي ، والأرض التى وقعت عليها ولم يترك العمدة يدى ، تفرستني بعينيه كأنهما مسماران يتقبان رأسى ، وتأتى وهو يحرق فى دون أن يهتز له جفن أو رمش ، أو عضلة فى وجهه الخشن المجد .

وسألنى فجأة فى صوت عميق كأنه صادر من بئر سحيق :

— انت مين ؟

كان يسألنى ، وليس فى عينيه ولا فى وجهه ما ينم عن انفعال أو قلق .. كان وجهه جامدا صلدا كالحجر

وقلت له محاولا أن أكون هادئا :

— أنا جأى من وزارة المعارف فى مصر .. علشان الشكوى الى كتبها حسين على باسمكم ضد القرية النموذجية ..

وأطرق الرجل برأسه ، وشدد من قبضة يده على ذراعى وقال :

— انت من رجالة المهندس .. هو الى بعثك ؟

فأنكرت فى حرارة وقد نسيت تماما السحالي التى ترحم من حولي :

— أبدا . والله .

فاشار بيده الأخرى التى تقبض على ، نحو اللورى الواقف بعيدا وقال :

— انت جأى فى اللورى بتاعهم ؟

وانتهزت الفرصة لادافع عن نفسى :

— أنا طلبت اللورى علشان يوصلنى عندكم .. لكن أنا ما أعرفش المهندس وماليش دعوه بيه ..

فقاطعتنى قائلا :

— اسمك ايه ؟

فأجبت :

— فتحي غانم

— والمهندس هو الى بعثك ؟

قالها فى هدوء كأنه يشجعنى على الاعتراف بهذه الحقيقة

ولم املك غير الصبر ، وعدت أؤكد له من جديد :

— قلت لك أنا ماليش دعوة بالمهندس

وأفزع عن ذراعى الذى يقبض عليه ، ودس يده فى داخل صدره ،

وأخرج « نوتة » صغيرة وقلمًا قصيرا .. قلم كويا

وسألنى من جديد فى هدوء قاتل :

— اسمك ايه ؟

— فتحي غانم

— وجأى مين ؟

— من مصر .. من وزارة المعارف ..

ومد يده « بالنوتة » والقلم قائلا :

— اكتب اسمك وعنوانك هنا ..

ومددت يدى لأخذ « النوتة » منه .. ولكنه عاد وسحب « النوتة »

بسرعة ، وقلب بعض صفحاتها ، حتى استقر عند صفحة بيضاء ،

قال لى :

— اكتب هنا ..

ومددت يدى الى جيبى لأخرج قلما الحبر ، ولكنه قال لى فى

تصميم :

- اكتب بالقلم ده ..  
واعطاني القلم الكويا ، وكتبت اسمي وكتبت عنسوان ادارة  
التحقيقات ، عمارة سيف الدين بشارع القصر العيني ..  
واخذ مني النوتة ، وقربها من عينيه ليقرأ في عناية وتمحيص  
ثم رلع رأسه عن النوتة وسألني من جديد :  
- اسمك ايه ؟  
كان يكرر هذا السؤال كائن في كابوس مزعج ..  
وعدت أجيبه في يأس :  
- فتحي غانم  
ونظر الى اسمي في « النوتة » برهة طويلة .. ثم سألني :  
- وعنوانك ؟  
فقلت له :  
- عمارة سيف الدين بشارع القصر العيني ..  
ولعت عينا الرجل بالشر ، وقال بصوت هادر ، جعل الرجل  
المسك بالبنديقية يقترب مني ، ويصوبها الى صاح العملة :  
- انت كذاب .. دا موش عنوان الوزارة ..  
وأجيبته بسرعة والرق يتصبب على جيبتي :  
- عنوان الوزارة ، شارع الفلكي لكن ادارتنا في شارع القصر  
العيني - والله العظيم أنا ياقول الحق ..  
فعد لي يده بالنوتة ، وقال في حزم :  
- اكتب عنوان الوزارة ..  
وكتبت عنوان وزارة المعارف بشارع الفلكي .. وأخذ مني النوتة  
وقراها من جديد . وأشار بأصبعه الى ما كتبت به وقال لي :  
- اقرأ العنوان ..  
وفي تلك اللحظة صدمتني حقيقة مذهلة ، أحسست فجأة أنه لا  
يعرف القراءة والكتابة ، انه يمتحنني بالورقة والقلم ، دون ان  
يستطيع قراءة حرف واحد مما اكتب .. ومنعني خوفا من ان أواجهه  
بهذا الاكتشاف ، كان من مصلحتي أن أتركه يواصل محاولاته  
الخاصة للتأكد من شخصي ..  
ونفض العملة نجاة ، فإذا به طويل جدا .. عملاق .. مارد ..

وجذبتني معه ، فأصبحت واقفا الى جانبه ، ومد يده اليمنى ، وقبض  
بها على كفي كأنه يسلم علي ، وقال لي في انفعال :  
- جول معايا ..  
ونظرت اليه مستسلما في غير فهم ، ومد أصبع يده اليسرى نحو  
عيني وهتف :  
- وعينيك ..  
كنت أرتعد في غياة مطبق .. فكرر من جديد :  
- جول معايا .. وعيني ..  
- وعيني ..  
وهبط أصبعه الى فمي وهتف :  
- وخشمك ..  
- وخشمي ..  
وشدد القبض على يدي وقال :  
- ودراغك ..  
وقلت :  
- ودراعي ..  
وأشار الرجل الى رجله وهتف :  
- ورجليك ..  
- ورجلي ..  
وزادت حدة انفعاله وهو يقول :  
- ان شاء الله .. يصيبني بالعمى والخرس والشلل ..  
وترددت .. فصرخت في ، فكررت بسرعة وراءه :  
- ان شاء الله يصيبني بالعمى والخرس والشلل ..  
وقال في حدة :  
- ان كنت كذاب والا من رجال المهندس ..  
وصاح :  
- اجرا الفاتحة ..  
وتمتعت بالفاتحة ، ولكنه لم يرض بصوتي الخفيض ، وطلب مني  
أن أقرأها بصوت مرتفع ، ولما فرغت من الفاتحة ، تهلل وجهه بشراء  
وشد على يدي مرحبا ، وقادني الى « دكة » خشبية ، جلسنا عليها،

وقال للرجل المسك بالبندقية :

- مات يا ابراهيم البرتقانات ..

واعترضت له عن اكل البرتقال ، ولكنه لم ينصت الى اعتذارى ولم يابه به .. وريت على كفتى في مطف ، وقال لى :

- سلامات .. شرفتنا ..

وانتهزت الفرصة كى امسترد انفاى ، واستعيد انكارى ، وانظمها ويرز لنا في هذه اللحظة شاب يبدو عليه انه ابله ، يسيل اللعاب من شديقه ، ويركب عصا من الجريد ، اقترب منا وهو يقفز فى الهواء ، ودس المدة يده فى جيبه وأخرج له تمرتين واعطاهما له ، وجلس الابله عند قدمى المدة ، ووضع التمر فى فمه ولاكها فى شغف ، وأشار الى قاتلا للمدة :

- يا عمدة .. هو ذا عسكرى ..

والفتت الابله الى وقال كانه يحفظ كلاما من ظهر قلب :

- لا لجينا حاجة .. ولا كحتنا الجبل .. ولا لجينا ذهب .. ولا مساخيط ..

وقال المدة وهو يضحك ، قبلت استانه الصفراء فى فمه :

- يا واد اسكت .. الافندى جاى علشان متنزلوش البنات وحاولت ان اتول شيئا اشارك به الحديث ، فسالت الابله بغير وعى :

- انت موش شايف ان البنات احسن من هنا ..

وادركت فى الحال انى اوتكبت خطأ جسيما .. هب الابله مذعورا من مقعده وصاح مقلدا التراجمة :

- جنتلن .. كان هنا فيه ملك ..

ثم جرى غائزا بمصايته (الجريد ، وهو يصرخ وينادى يا محمد يا صالح .. يا جازيه .. يا مكى .. يا حسان .. يامعوض .. يا ام الخير .. ياشيخ غريب ..

وقال المدة فى تأنيب :

- وعيته يا شيخ .. ليه تجول له ان البنات احسن ..

ولم تغض ثوان ، حتى رايت رجالا وكساء انشقت عنهم الجبل لاهلن لهوى ..

وكانت اسرعهم فى الوصول اليها ، امرأة شابة ، غارقة فى ملابسها السوداء ولا يبدو منها غير وجه وسيم ، تضيئه عينان واسمان جيلتان ..

وقالت المرأة فى حدة موجهة كلامها للمدة :

- جلت له ايه يا عمدة .. اوعى يكون بيضحك عليك ..

ويكون من رجالة المهندس ..

فصاح المدة فى حنان أبوى :

- لا يا بت .. انا مكتبه اسمه وعنوانه .. وأخذت عليه عهد الله انه من مصر ..

ولم تقتنع المرأة بما سمعته ، فسالت فى اهتمام :

- مضيت له على حاجة ..

وارتفع صوت المدة وهو ينكر انه وقع على شيء ، وسط أصوات مختلفة انطلقت حولنا :

- شوف يا حضرة الافندى .. احنا موش متعلمين .. مفرضناش تنزلوا واصل .. الجبل جبلنا .. وجبل جدودنا .. لورى الاثارات واجف يعمل آه ..

وتركهم المدة ، يقولون كل ما يجول فى صدورهم ، وهو ينظر إليهم فى اطمئنان وسرور .. ثم قال لهم أخيرا :

- جلتكم الافندى جاى من مصر .. وجاى يسمع شكوتنا .. وانا الى ح اكله ..

وانطلق صوت محتجا :

- ولورى الاثارات ..

فصاح المدة .. ح تشبيه .. والافندى يجعد معايا أجوله كل حاجة على المبل .. روح يا ابراهيم جبول للورى يشى من هنا ..

ولم اقصر على الاعتراض .. بل ايدت طلب المدة ، وقلت له :

- انا رايح مع ابراهيم علشان اكلهم السواق ..

ودهبتم الى السائق ، وقلت له ان ينصرف لحاله ، وما كاد السائق يسمع الامر ، حتى رحب به ولم يسألنى كيف اعود ، ولم أسأل

نفسى هذا السؤال .. انطلق السائق باللورى وهو يشكر الله لان

تجا بجلده .. وعدت انا الى المدة وحذيت تحت رحته تماما ..

٦١

## الفصل الخامس

أكلت « البرقعات » ، التي جاء بها الرجل الذي كاد يقتلني ببندقته ، ولم أستطع الانفراد بالعمدة لأسمع منه ما يريد أن يقوله لي ، تكاثرت حولنا أهل الجبل ، وقد أرفعت أصواتهم ، تطالبني بأن أزدود مقابر الفراعنة ، قبل أي شيء آخر ..

كانوا يتحدثون عن المقابر ، كما لو كانت من ممتلكاتهم الخاصة ، لا دخل للحكومة بها ، ولا سلطان لأحد عليها سواهم ..

وتركني العمدة أهم ، وقال لي أنه سيستظرني حتى أعود إليه ومضيت مع قافلة من النساء والرجال نحو المقابر ، وقد سادت بينهم حركة نشيطة .. امرأة تجرى إلى أحد الكهوف . وتخرج منه امرأة ، ورجل يسرع إلى كهف آخر ويأتي ومعه بطارية صغيرة . وصبي يتقدم مني ويشد قماش بطلوئي ويبرز لي تمثالا فرعونيا صغيرا .. قائلا في الحاح :  
- اشتره .. اشتره ..

فيظهر رجل كبير ، وبهشة بعضا غليظة في يده ، قائلا له في عصبية وشهامة :

- متجربش يا واد .. دا خيف علينا مشرم السياح ..

وشكرت للرجل في نفس مروءته .. وأحدث قوله « خيف علينا » رد فعل مفاجئ للخوف الذي كنت أعاني منه ، أحسست بالطمأنينة تنساب في صدري وأيسنت أنهم لن يصيبوني بأذى ..

ووقفت منذ شيء عجيب ، كأنه قلعة ضخمة من التللاع التي تستخدم في لعبة الشطرنج ، وعلى سطحها نام طفل صغير .. وقالوا لي أن البناء لخزين القمح وأن سطح البناء له حافة مستديرة مائلة إلى الخارج ، لأن المقابر لا تستطيع الزحف على المسطحات المائلة ، فتحتفظ الأمهات بالأطفال على السطح وهن مطمئنات على أطفالهن ،

ومعيت نفسي ، كيف لم أفرع في تلك اللحظة وأنا أسمع عن المقابر ، لعل شيئا في داخلي قد تغير دون أن أشعر ، هل هو الاستسلام ، أم اليأس ، أم هو الطمأنان حقيقى إلى المكان ! ..

ورأيت المرأة التي جاءت بالمرأة تجلس القرفصاء وتمكس أشعة الشمس بمرآتها نحو فوهة أحد الكهوف لتفحصه من الداخل ، ولم يكن الكهف في هذه المرة بيتا للسكنى .. كان مقبرة فرعونية .. وتقدمنى أحد الرجال إلى داخل الكهف لتفحصه ، وفلن الآخرون في الخارج .. كان الكهف حجرة صغيرة ، حوائطها منقوشة بألوان زاهية .. رسوم فرعونية لفلاحين يزرعون ويحصدون وكاتب حسابات يدفع أجور الفلاحين ، وآخر يزن القمح بمكيال .. وانطلق الرجل يشرح لي ما أراه على ضوء النور الذي تمكسه المرأة من أشعة الشمس ..

لم يقل كلاما خرافيا ، ولم يسترسل في حواديث ساذجة ، تكلم كعالم آثار خبير ، يحفظ التاريخ بدقة ، وينقله إلى سامعه بأمانة .. قال لي إن كل الكهوف في هذه المنطقة تحوى مقابر الإشراف أى طبقة كبار الملاك والأثرياء من الفراعنة ، والملاوك الفراعنة لهم مقابر في مكان ثان ، وللكات الفراعنة مقابر في مكان ثالث ومسالت الرجل :

- وليه اتم ساكنين مع الإشراف ؟

فنظر بأسا إلى صور الفلاحين المنقوشة على الحوائط منذ آلاف السنين وقال في بساطة وحرارة وإيمان :

- دول أجدادنا يا بيه ..

كان ينظر إلى الصور وفي عينيه نفس الحزن الذي تشعر به عندما تفصل صورة قديمة لقريب عزيز مات في عائلتنا .. لاشك أنهم لا يحافظون على هذه الصور بدافع التقديس للعلم والتاريخ .. أنهم يحافظون عليها بدافع وباطة الدم بينهم وبين أجدادهم الفراعنة .. وأضاء الرجل بطاريتة الصغيرة . وصوبها إلى صورة الفلاح الذي يكيل القمح ، وقال ضاحكا :

- الراجل ده سخته مثل العمدة ..

أنه يرى في صور الحاصدين والزارعين والذين يقبضون أجورهم . عائلته القديمة أنه في صميمه ليس رجل الجبل .. أنه فلاح .. الجبل



هو الحائط الأخير في طريق مشيرته . نلردتهم ظروف الحياة من الحقول  
وإمدهم عن كل شيء ، وتقهقروا حتى استندوا ظهورهم الى  
الحائط . الى الجبل . وهنا وقفوا ليناديوا من اجل بقائهم في الدنيا  
انهم لا يعرفون كيف يتقدمون . كية . يتطورون بحياتهم ، فيلتفتون  
الى الجبل . الى الحائط من خلفهم . ويضربون لعل الصخر يفتح من  
أجل . من مستقبل

صخور الجبل في ناخها عرق إجدادهم وتعبهم ، خفي الكنوز التي  
صنوها ، وحملها الانقياء . الاشراف . الى مقابرهم ، ولقد جاءوا  
الى الجبل وراء حقهم الذي دفنه الاشراف ، يريدون استعادة الميراث  
الذي خلفه لهم الاجداد

دارت راسي بهذه الأفكار ، وأنا تأمل على ضوء البطارية ملامح  
المعدة الفرعونى الذي يكيل التمتع . ان المعدة الحالى يكيل في أحلامه  
الذهب . هل الذهب وحده هو الذي يقيهم في هذا المكان : ليست  
هذه الرسوم على الحائط باعثا آخر على تصاقهم به . خطر لى هذا  
السؤال ، ولكنى أتكره في الحال . انه خاطر عاطفى جميل . ولكنهم  
لا يملكون فرصة التمتع بالمواطف الجميلة المجردة . انهم في معركة  
من أجل العيش . في معركة مع الحكومة ، وفي الحال خطر لى سؤال  
آخر عجيب كيف لم أفكر فيه من قبل . سؤال لأشك انه خرج من  
عقلى الباطن ، وأنا أشاهد صور العمل في الحقول الفرعونية . البلد  
والحرث والحصاد . كان السؤال :

ما العمل الذى ينتظر أهل الجبل لو تخلوا عن كوفهم ، وهبطوا  
الى القرية النموذجية ؟  
وانتابنى رعدة ، وأنا لا أجد اجابة على السؤال . هل يمكن  
هذا . أن يقوم مشروع حكومى ضخم تنفق فيه الاموال وترسم فيه  
الخطط ، وتحرك فيه عبقريه الفن ، دون أن يسأل أحد نفسه .  
ما الذى سيصنعه هؤلاء الناس في قريتهم الجديدة ؟ مستحيل .  
لا بد ان المهندس يعرف الاجابة على هذا السؤال . ولا بد ان المعدة  
ايضا يعرف ماذا يراد به هو وأهل الجبل .

سأسال المعدة بمجرد أن أفرغ من مشاهدة هذه القبرة  
لقد بدأت اتبين عمقا جديدا للشكوى التى أحققها . شكوى  
حسين على .

ابن حسين على ؟  
وسألت الرجل في الحال :

حسين على فين ؟  
وأطرق الرجل برأسه ، ولم يجب على سؤالى . كان يفكر تفكيراً  
عميقاً . ثم قال وهو مازال مطرقاً :

ما أفروش .  
قالها . بعد أن اتخذ قراراً بينه وبين نفسه . الا يقول لى شيئاً  
أكثر من اللازم . شيئاً لا يعرف مدى نتائجها .

وسمعت أوضح للرجل لماذا أمتنى . قلت له :  
حسين على الى قدم شكوى للحكومة في مصر . ملشان مانزلوش  
القرية النموذجية ؟

وسمعت الرجل تماماً . حتى سمعت انقاسه واضحة تتردد داخل  
القبرة .

وقفتى صمته . من يبرى ، ربما كان هذا الرجل بالذات يريد  
الهبوط الى القرية النموذجية والسكنى فيها .

وسألته ببساطة :  
والا انت موافق على التزول في البنات .

التي جلد السؤال من قبل على الأبله . فهاج ونجنع القرية كلها  
بصياحه . ولم أعلم ما حدث . ظننت أن الأبله قد هاج لانه أبله .  
ولكن هذا الرجل أقنعنى تماماً بأنى أرتكب خطأ قاتلاً بتوجيه هذا  
السؤال لاي إنسان في الجبل .

نسى الرجل انى ضيقه ، وتخلص فجأة من حذره وخرج من تفكيره  
المعيق في أسئلتى التى لايجيب عليها ، ونظر الى نظرة مفترسة ، ومد  
يده الى صدرى وقبض على رباط عنقى بشدة . وجلدنى اليه حتى  
انترب وجهى من وجهه ونحن واقفان داخل القبرة . وقال في صوت  
خفيض حازم :

لو نزلنا البنات ح تخطف الأفندية الى ذيك . ح تخفى في  
الجبل وتغرب في السياح . محدش متكم يعتب هنا .  
كان اندازاً واضحاً حاسماً . أحسست به في عنقى

ورفع الرجل يده عنى . وقد بدا أمامى كإد مخيف ، غريت من  
مناوئته المتأبر

واسرعت بالخروج فلحقنى الى الخارج ونظر الى وكأنه لم يمسك  
بخناتى منذ لحظة ، وصمم على دعوتى لمشاهدة كهفه الذى يسكنه ،  
وليقدم لى الشاى ..

\*\*\*

كان كهفه بلا نقوش .. كانت أطباقا جميلة من أنفث الملون هى  
التي تزين الحائط ، ورايت زوجته فى ملابسها السوداء ، ومعها صبية  
فى جلباب مزركش تقفان خارج الكهف تنظران الينا فى صمت ..  
والصبية قد صفقت شعرها فى ضفائر كثيرة قصيرة منسدلة على  
جبينها .. نفس تريحة الشعر الغرونية التي أراها فى صور  
الملكات ..

تأتى جبال الصبية مشيا ، لا أستطيع أن أصف هذه الصبية بأنها  
جميلة كالتمر أو رقيقة كنسمة الريح . أصدق : أوصف به .. أنها  
حسنة كالارض الخضراء ، فاترة كشمس الصيف نبيلة كمنته  
فرعونية ..

ونظرت الى الصبية بعينين لا تعرفان الخجل ، ولكنهما تعرفان  
الحياء .. كانت تنظر فى دهشة ، ولكنها لا تنظر خلسة ، عيناهما  
صريحتان . يخرج منهما بريق أسود حزين ..

وأشار مضيفى الى الأطباق ، وقال لى ان ابنته هى التي صنعتها  
بيديها ، وأنه يغير بمهارة ابنته ، فكلما زادت أطباقها زادت فرصتها  
فى الزواج ، وأقبل عليها الخطاب من شباب أهل الجبل ..

وايقنت انى لو كنت شابا من الجبل لما ترددت لحظة فى التقدم  
لخطبة هذه الصبية .. ترى هل كانت ترضى بى ، من فتى أحلامها  
من الذى ترضى أن تمنحه جسدها الحنون وهى فرحة نشوانة ؟

... انى عاجز تماما عن معرفة مشاعر المرأة على حقيقتها هنا .. فى  
الجبل . لا شك أن لغة عواطف الانثى فى هذا المكان ، تختلف تماما عن  
لغة عواطف الانثى فى المدينة الكبيرة التى أعيش فيها . . فى القاهرة  
يخيل الى ان الصبية لم تنظر الى أبدا على انى رجل ، من الممكن ان  
تقوم بينها وبينه علاقة عاطفية ، اعتقد انها عاملتى بينها وبين نفسها  
كحيوان غريب ، أو مخلوق ناذ ، كذلك المخلوقات العجيبة التى تأتى  
فى صورة سباح وتطفل على مقابر أجدادها الفراغة ..

ولم أجد فى الكهف غير الأطباق القس ، وسرير حجرى ضخّم تحته  
موقد للشار ، وسلّة فى أحد الأركان وصندوق خشبى ضخّم لا أدرى  
من أين أتوا به وجلست انا ومضيفى فوق الصندوق . بينما تقدمت  
الزوجة وسعت لى الشاى وأفرغته فى أكواب صغيرة اعطتها لابنتها  
لتقدمها لنا ..

وفوجئت بصبى صغير يدخل علينا وهو يقود حمارا .. دخل الحمار  
الكهف فاستقبلوه باهتمام كبير ، واسرعت الصبية تقدم له العلف بعد  
أن ربطته فى أحد الأركان .. انه واحد من أسرهم ، يعيش معهم  
ويأكل وينام تحت نفس السقف الذى يأكلون وينامون تحته ..

ونظر مضيفى الى الحمار ، ثم نظر الى وبدأ يشرح لى كيف أن  
مهندس القرية النموذجية يريد منهم أن يتركوا دوابهم بعيدا عن  
بيوتهم ، وقال فى تأثر :

- الواحد منا ينام بعين مغمضة وعين مفتحة على حمارته والا  
بهيمته .. كيف أنام والحمار بعيد عنى .. من يحرسه .. المهندس ..  
والله ما كانت تمر عليه ليلة الا والاجيه مسروح ..

وتدخلت الزوجة فى الحديث ، وذملت وأنا أستمع الى نقد فى  
توجهه الى هندسة مباني القرية النموذجية ، انها غير راضية عن  
القباب التى صنعها المهندس فى البيوت ، فهى لا تعرف القبة الا فى  
ضريح ولى الله ، وهو مقبرة ، فلماذا يصّر المهندس على اسكانهم  
داخل مقبرة ، انها لم تعت بعد ، حتى تدخل بيتا له قباب ..  
ستعيش حياتها هنا فى الكهف ، واذا ارادت الحكومة أن تنقلها الى  
بيوت المهندسين ، فلتنقل جسدها بعد أن يدركها الموت ، وتدفنها فى  
تلك البيوت .. لا مانع عندها أبدا أن تكون القرية النموذجية مقبرة  
لأهل الجبل ..

وكان منطق المرأة قويا ، فهى صاحبة البيت كما يريد لها  
المهندس ، لذا أذن لم يستشروها فى رسم البيت الذى ستسكنه  
كيف يطلبون من زوجها أن يوقع على وثيقة البيت ، وهى تنفر من  
شكله وتنشأ من السكنى فيه .. ان المساكن لا تفرض على أصحابها  
والا تحولت الى سجون ، وهى لم ترتكب ذنبا أو اثما حتى يحسّم  
عليها بالسجن ..

.. أنا ما أخفض من حد .. أنا جلت الكلام ده جدام الاميرة

وسالته في لهفة وجلر:

.. قلت للاميرة ايه ؟

وربت المعدة بيده على كفتي قائلا:

- صبرك بالله . أنا ح أجولك على كل حاجة

ودوى لى المعدة ما حدث بينه وبين الاميرة

لقد قامت بينهما معركة ..

كان ذلك عندما فرغ المهندس من بناء أهم مباني القرية . والجامع  
والمدرسة والسوق والخان وبيت العمودية وأحد الاحياء الخاصة  
بسكن الاهالى ..

وقدر المهندس افتتاح القرية واقامة حفل كبير تحضره وتشرفه  
الاميرة ، ويستقبلها أهل الجبل ، ويشكرون لها زيارتها لهم وفضلها  
رفضل شقيقتها الملك عليهم بينما القرية الجديدة لهم ..

وفي صباح احد الايام ، جاء القاول كرسول من المهندس ليبلغ  
المعدة ببناء الحفلة ، ووافق المعدة على أن يقابل مع أهل الجبل ،  
الاميرة ويرحبون بها ، وسأهل المعدة ، فرضى أن يهبط مع رجاله  
الى القرية النموذجية والا يشترط - كما كان يود في قرارة نفسه -  
أن تصعد الاميرة اليهم في جبلهم ، وتزورهم في مساكنهم ، وكان  
المعدة يرى ان زيارة الاميرة فرصة حسنة ليشرح لها موقف أهل  
الجبل من القرية النموذجية دون أن يهتم بأن الحفلة اتيت من أجل  
القرية النموذجية والعام بانها .. كان المدة يؤمن أنهم على حق ،  
وأن أى كلام يقوله للاميرة ، سيصلح في الحال الظلم الواقع عليهم ،  
وسيزيل خطر التهديد بنقلهم من الجبل ..

وجاء صباح يوم الاحتفال ، وقد أعد المدة رجاله الذين سيقصون  
بالصلى امام الاميرة ، واستعد مقنى الجبل مع فرقته المكونة من  
هازن الزمار وهازن الافول والصاربعلى الدف .. ليؤدوا ادوارهم  
الفنائية امام الاميرة ..

وذهب بعض الرجال الى القرية النموذجية ، يستطلعون ما يقام  
فيها من استمدادات ، واذا بهم يقاچون بسيدات منتشرات في

واشارت المرأة الى ابنتها التى كانت تجلس صامتة ، وقالت في  
إسبى ، ان هذه الصبية وابنها الصغير والحمداء يتمبون كل يوم عندما  
يقومون برحلتهم الطويلة اليومية ليقنلوا الماء من النهر الى الجبل ..  
وكان بودها لو تقلت الحكومة الماء لهم ، بالاموال التى انفقته في بناء  
هذه القرية التى لن يسكنها أحد ..

وكنث قد فرغت من شرب الشاي .. ولدخين مسجارة « ابو  
غزالة » قلنها الى مضيفى ، فنهضت مستأذنا للذهاب الى المدة  
الذى ينتظرني ، وودعثنى الزوجة قائلة :

- أنكلما كتير يا انفدى مع رجالة زى حالناك ، ولاشغناش حاجة  
.. المهندس له جاعد في البنابات غرضه ينزلنا بالمسكر ..

وتحطمت مقاومتي امامها .. فقلت لها فى حماس دون أن ادري  
خطورة ما اتوله :

- ان شاء الله مش ح تنزلوا البنابات وتفصلوا هنا زى ما انتم  
هايزين ..

خرجت من طبيعتي كمحقق واصدوت حكما فى القضية وأنا  
لا املك الحكم فيها ، ولم تفرح المرأة بكلامي ، وربما اعتادت سماع  
ومود كثيرة من « الانفدية » ولا تتحقق هذه الوعود . كفاها أنها  
شرحت لى انكارها ، ولأنمل أنا والحكومة التى انتدبتنى - بعد ذلك  
- ما تشاء .. انها مصررة الا تسكن القرية النموذجية حتى الموت ..  
ووجلت المدة جالسا على الاريكة يرقبني وأنا قادم مع مضيفى،  
وافصح لى مكانا جانبه ، وتركنا مضيفى وحدنا ليتبع للمدة فرصة  
شرح قضيتهم لى :

وبدا المدة حديثه في هدوء :

- شوب يا ابني .. أنا لا يهمنى المهندس .. ولا الحكومة ولا  
الملك كتمان ..

وتلفت حولي في جزع ، كان هناك من يتجسس علينا .. ان تحدى  
الملك علنا على هذا النحو ، قد يؤدى الى رقتى من وظيفتى . وربما  
قبضوا علينا والقوا بنا في السجن ، أنا والمعدة

- بلاش الكلام ده يا عمدة ..

فصاح بأعلى صوته :

واستمرت المرأة تصرخ  
بالفرسية :  
- اتم هج .. وعوش  
يجب ان نلن بزل التوتون  
التكرهه التي جثم بعقلنا  
المسحاح ، ساحط لسكر  
الاسلاك .. ستسلف التوتون  
سلاطه هذه الشامة التي  
جثم بها الرخلا الكلا ..



القرية ، يلبس ملابس بيضاء .. ومعهم قوة من رجال البوليس ..  
وامرت السيدات رجال البوليس ، بان يقضوا على القادسين من  
اهل الجبل ، و : -  
الصابون كما تفعل الجياد ، ثم اخرجوهم من الحمام وقد رموا  
ملابسهم ، واعطوهم « جلاليب » جديدة .. ذات لون واحد - هو  
اللون الابيض .. حتى اصبح الرجال وكانهم فرقة اخرى من فرق  
المساكر تتردى الجلابيب

وانتقل النبا بسرعة الى اهل الجبل .. واعتبروا ماحدث لزملائهم  
اهانة كبرى .. باى حق يجبروهم على الاستحمام وكيف يستهترون  
بهم ، فيلقون بملابسهم ، ويعطونهم ملابس اخرى لها لون واحد ،  
حتى تصبح مظهرهم مثرا للزاوية والشقة ..

وصمم اهل الجبل على عدم حضور الحفل .. حتى يوفروا على  
انفسهم عملية التعذيب التي سيمرون بها من اجل استقبال الاميرة ..  
وعرف المهندس ، بما اعمره اهل الجبل ، فثار وكاد يجن جنونه  
.. انها كارثة ان تحضر الاميرة ملا تجد من يرحب بها ويهتف باسمها ،  
ويرقص امامها ، ويفض لها الاناثيب : كيف يجزؤ الاهالى على ارتكاب  
مثل هذه الحماقة .. لابد من ارسال فرقة من المساكر لتأديبهم  
واحضارهم بالقوة ..

وصدرت الاوامر فعلا للمسكر بالتقدم نحو الجبل ، والقاء القبض  
على اهله جميعا : رجالا ونساء واطفالا : والهبوط بهم الى القرية ،  
واجراء عمليات الاستحمام واستبدال الملابس لهم ثم اصدار الاوامر  
لهم بالهتاف والغناء والرقص عند حضور الاميرة ..

وتحرك المسكر نحو الجبل .. بينما تجمع اهل الجبل وند حملوا  
السلح ، استعدادا لمقاتلتهم ..

وادرك المسكر من تجمعات اهل الجبل : انهم سيواجهون مقاومة  
كبيرة : واسرع الضباط والمهندسين يتشاورون ..

ان حدوث معركة تسفر عن قتلى وجرحى يوم زيارة الاميرة امر غير  
مرغوب فيه ، سيؤدى الى اوخم النتائج بالنسبة للجميع لا مفر اذن  
من تفادى المعركة ..

وصدوت الاوامر للمسكر بالانسحاب .. فسادوا الى القرية النموذجية .. وبقي المهندس يشد شمر رأسه باحثا عن طريقة يستقبل بها الاميرة يحشود من الهائفين المرحبين ..

وتدخل شابط المسكر بفكرة وجيزة .. لماذا لا يحضرون فرقة كبيرة من فلاحى احد الباشوات فى حقول الشاطئ الشرقى يعبرون النيل الى القرية النموذجية ، بمصيهم وخيولهم ومزاميرهم .. ويستقبلون الاميرة استقبالا ضخما على انهم اهل الجبل !! ورحبوا فى حماس بالفكرة ، وكانت هى المخرج الوحيد للمازق الذى يواجهونه ..

وعملت اللوردات والراكب ، فى تقل الفلاحين ، حتى امتلات بهم القرية .. وتضاعف عدد المسكر ، خشية تشوب صراع دموى بين اهل الجبل الحقيقيين ، واهله الزينيين ..

وجاءت الاميرة وارتفعت الهتافات ، وبدا الرقص والغناء وكان العمدة فى تلك اللحظة ، يرقب فى تحفز مع اهل الجبل ما يجرى هناك عن بعد فى القرية النموذجية ..

كان الجميع يلحون على العمدة ان يعطى اشارة ببدء الهجوم لينضخوا الى القرية النموذجية ، فيقبضوا على كل من فيها ، ويحرقوها ويدمروها تدميرا ..

ولكن العمدة رفض كل مطالبهم .. وجلس القرفضاء يفكر تفكيرا متصلا وهم من حوله ينتظرون ، ثم وقف العمدة فجأة ، وقال لهم : - انا رابع للاميرة .. لوحدى ..

وارتفعت صيحات الاحتجاج والمعارضة من حول العمدة ، ولكنه رفع صوته مزمجرا معلنا انه اتخذ قرارا لا رجوع فيه ، وانه يامرهم بالانزاع السكون ، حتى يذهب ويقابل الاميرة ويعود ..

ثم انطلق العمدة فى طريقه نحو القرية النموذجية ..

كانت القرية النموذجية فى حالة هستريا ..

الاميرة مسكراة ، وحولها خمسة من الشبان الامريكيين ، ومعهم المهندس وبمضى رجال الانار ، وسيدات للجميمات السائية ، اللاتي انفرن فى الصباح على غسل الفلاحين بالماء والصابون ، والباسبهم الجلابيب البيضاء الجديدة ..

وكانت السيدات فى ملابس السهرة ، فيعد ان فرغن من غسلهن ، عبرن النيل الى ووتر بالاس ، حيث ابدلن لساتين السهرة ، بملابس العمل البيضاء ، ومطرون وزين ، وعدن منمرات للترحيب ينقسم الاميرة ..

اما الفلاحون ، فكان يبدو عليهم الاعياء الشديد ، لقد احضروهم على عجل من حقول الشاطئ الشرقى ، وبعد ان فرغوا من الاستحمام وارتداء الجلابيب ، منسدت اليهم الاوامر بالجلوس القرفضاء ، فى صفوف طويلة ، وقد وقف عليهم المسكر يحرسونهم ، ويمنعونهم من التحرك .. لا يستطيع واحد منهم ان يجلس خشية ان تسخ ملابسه بتراب الارض . طلوا جالسين القرفضاء ثمان ساعات او اكثر ، بلا طعام ولا شراب كانهم دمي خشبية .. حتى اقبلت الاميرة فى المساء ، بموكبها الامريكى ، فانفض الفلاحون صادعين للاوامر فى المساء ، بموكبها الامريكى ، فانفض الفلاحون صادعين للاوامر وانطلقوا يهتفون ويصيحون ويرقصون ويصفقون .. كانت حركايم مبالغا فيها ، لا من اجل عيوش الاميرة ، ولكن لتفويض الساعات الطويلة التى قضاها بلا حراك .. كانوا ينفسون عن انفسهم ويفرجون عن الكبت الذى عانوه وهم جامدون كالتمسابل فانطلقوا صارخين ملوحين ، كان شيئا يتفجر فى داخلهم ..

ونظرت الاميرة الى اصداقائها الامريكيين فوجدتهم فى ذهول من الاستقبال الحساسى .. ففرحت للدهولهم ، وامرت تاييمها الذى يقف وراءها ، فقص لها الويسكى من ترموس يحمله معه ، وشربت فى نهم ، وهى تتخيل نفسها فى مقامرة عجبية فى ادغال وسط افريقيا .. والفلاحون هم الزنوج الذين تراه فى اللام طرزان ..

والتفتت الاميرة الى الشاب الامريكى الذى يجلس الى يمينها وقالت له فى انفعال بالانجليزية :

- انى لست خائفة .. لا اظن انهم من اكلة لحوم البشر .

فاجابها الامريكى ضاحكا :

- ارجو ان يتحقق ظنك ..

فبان التردد على وجه الاميرة ، وتلفتت حولها ثم همست فى اذنه قسائلة :

- على اية حال ، نحن فى حراسة قوية ..

وستف الامريكى على شمال الاميرة :  
 - انها ليلة مشرة حقا ، هل جويد في هذه المنطقة حيوانات مفترسة ؟  
 فقالت الاميرة على الفور لتطمئن نفسها :  
 - لن الاسود لا تقترب من هذه الضجة ..  
 وكان الفلاحون ، قد بدأوا رقصا منتظما بالمضى في حلقات متناثرة  
 في ساحة القرية ، ووسط هذه الحلقات ركب بعض الفلاحين الخيل ،  
 يرقصون بها على انغام الزمار والأغول ..  
 واقترب المهندس من الاميرة وقلل لها بالفرنسية :  
 - ارجو ان تكون سمو الرئيسية راضية من هذه الليلة  
 فتلقت الاميرة الى اصداقائها ، ثم قالت :  
 - ان اصداقائي مسرورون جدا ، وانا ايضا مسرورة ..  
 ونجاة ارفعت نجمة في احد اركان الساحة ، وشوهد مساك  
 كثيرون يجرّون نحو مكان الضجة . ووقف الامريكيون في فزع ،  
 بينما تصلبت الاميرة على مقعدها لا تقوى على الحراك وجرى المهندس  
 يستطلع الخبر .. وتوقف الفلاحون عن الرقص وساد المكان صمت  
 رهيب ..

كان عمدة الجبل يريد اقتحام الساحة ، ومن حوله المساك  
 يتمتعونه ، ولكن الرجل المعجوز قاومهم كالطود ، لم يتزحزح من  
 مكانه ، وهو يزأر في الرجال الذين يمترضونه .  
 - انا جاي اجابل الاميرة .. متجربش لاضربك .. والله اضربك ..  
 كان العمدة يلوح بيده ، متبوعا من يمينه بغيره ، وعيناه  
 صارمتان ترسلان بريقا من اللهب ..  
 وعاد المهندس بلهث ، وقد تذكر انه ترك الاميرة بشي استئثان ..  
 وانحنى امامها قائلا بالفرنسية :  
 - اني آسف يا سمو الرئيسية . ان الرجل المعجوز عمدة  
 الجبل .. يريد اقترع سمكك بالحديث اليك ..  
 فقاطعه احد الامريكيين في مرح :  
 - ولماذا لا ياتي .. في شيء سهل ان نتحدث الى واحد من  
 هؤلاء الخلوقات .. هل هو الزعيم ؟  
 فاجاب المهندس مترددا :

- نعم انه الزعيم .. ولكنه رجل ماهر ..  
 فصاح الامريكى في مرح :

- كريم الهند الحمر عندنا .. احضروا بعض الخرز وقطع  
 السكر قدموها هدية له .. انه سيفرح بها جدا ..  
 وابتلعت الاميرة كاسا آخر من الويسكى وامرت باحضار  
 العمدة اليها ..

كانت الخمر قد اذابت افكار الاميرة ، فاختلطت الخيال بالواقع في  
 رأسها .. لم تكن تعرف بالضبط ، في أي مكان هي ، ولا المناسبة  
 التي جاءت بها الى هذا المكان .. كل ما تحسه ، هو ان شيئا مثيرا  
 جديدا يدور حولها ، وان الضجة والصرخات والرقص والخيل ..  
 كل هذه الاشياء تحرك الملل الكامن في داخلها ، وتشير في جسدها  
 نشوة جديدة . نشوة تنطفئ مع الفجر ، ويحل مكانها مثل جديد  
 .. ملل ثقيل .. يبحث عن مغامرة جديدة ونشوة جديدة ..

ورأت الاميرة ، صورة العمدة ، في جسمه الطويل الاسطوري  
 وهو يتقدم منها ، محاطا بالمهندس وبعض المساك ، بينما صدرت  
 الاوامر باستئذان الرقص في الحال .. ووقف الامريكيون ينظرون  
 في ترقب يشوبه الحذر والقلق ، واتجه العمدة الى الاميرة ، ومد يده  
 اليها ، وقبض بها بقوة على يدها وشد عليها بقوة سرت معها وعششة  
 احسنت بها الاميرة في ذراعها وفي ارتجاج تديبها ، وفي تقلص بطنها  
 وسرت الرعدة كالتيهراء في ساقها ..  
 وابتلعت الاميرة كاسا اخر في جوفها .. وقالت ضاحكة  
 بالفرنسية :

- دعوه يجلس الى جانبي ..

كانت الرعدة التي سرت في جسد الاميرة ، سببا لاجابها بالعمدة  
 .. بالرجل ، كانت تنظر اليه ولا تراه .. كانت تتخيله .. قوة من  
 الرجولة لم تعرف نها مثيلا من قبل ..  
 وتحولت الاميرة الى أنثى .. أطلقت ضحكات ناعمة لينة ، وبرزت  
 ثنايا جسدها .. وتراخت على مقعدها ، واكتست عيناها بفشفاوة  
 من الرغبة الناعسة .. ومثل اطراف انامنها تداعب بها ذقن العمدة وهي  
 تقول له بالفرنسية :

- آه .. يافارسى الجميل ..  
وشمر العدة بزهر الرجل المجوز ، الذى تداعبه صبية صغيرة  
حسنا ، وضحك عينا ، وانفج له عن ابتسامة كشفت عن أسنانه  
الصفرى ..

وقال أمريكى للأميرة فى لهفة :  
- يبدو أنه من أكل لحم البشر  
فاجابت الأميرة بضحكة عصبية :  
- لا شك أنه يريد أن يأكلنى الليلة .

وقال أمريكى آخر :

- يبدو أنك لا تعلمين ..

فصاحت الأميرة :

- أبدا .. أبدا .. فليأكلنى هذا الفارس الجميل ..

ومدت يدها تداعب عمامة العدة ..

فتراجع العدة برأسه ونبيه عيب الأميرة بغطاء رأسه .. الى وقاره  
وكرامته فتنتحى وقال مواجها الأميرة بصوت جوى :

- اسمى يا أميرة .. جولى للملك .. احنا موش اثارات .. احنا  
متنجلش من الجبل .. احنا كبرنا وبجيا زى السجر ، وان اتجلبنا  
نموت ..

ولم تفهم الأميرة سوى كلمة « الملك » فسألته فى دهشة :

- انت تعرفه ؟

فاجابها العدة فى أمى :

- الكباريات ان جم هنا .. يشوفوا الاثارات ولا يشوفوناش

والنفت العدة تاجية المهندس وقال مشيرا اليه :

- والراجل ده بيضربنا .. والبنات دى متفتناتش .. الراجل

ده نصاب .. والرجالة الى يرقصوا موش رجالتنا جابوهم من الشا

الفرجى .. دول فلاحين يا أميرة ..

ولم تلم الأميرة سوى أن المهندس « نصاب » وأعجبت الأميرة

بالكلمة .. فاشارت الى المهندس ، وقد طمرت الدموع من عينيها من

الفرح وهو تصبح بالمرية :

- انت نصاب .. يقول انت نصاب .. لازم يموتوك ويكلوك  
علشان انت نصاب ..

وسأل أكثر من واحد من الأمريكين فى فضول :

- ماذا يقول .. ماذا يقول ؟

كانوا ينظرون الى العدة كمعجزة .. أو كلمة غريبة ، تصدر  
عنها حركات وكلمات عجيبة ، وكانوا لا يريدون أن يفوتهم شئ مما  
يصدر عن هذه اللبة ..

وقالت الأميرة لاصدقائها ضاحكة :

- سنشاهد الآن منظرا فريدا .. ان العدة يقترح أن يأكل للمهندس

ما رأيكم ؟

وصدقها الأمريكيون .. وضحكوا فى انفعال وهم يكتفون انزعاجهم

بصعوبة ..

واستأنف المسدة يشرح مشكلته :

- كيف تميش فى البنات .. ح ناكل كيف .. دا عملها جيب

« قباب » .. والجيب ما يرجدش تحتها الا الاموات .. وعامل

لبها ينما غرف ، واحنا خلونا ننام جنب بهايما .. ما نستريحش الا

لا الواحد ينما ويشوف بهيمته نايمه جصاده ولا نسيبها تنخطف

واحنا ما ندرش .. وجال ييجولوا انزلوا جنب اللبة .. لكن كيف

ناكل .. لا زرع نزرعها ولا شغل نشتغلها .. نيمد عن الاثارات ،

وعيشتنا على جرشين ناخدم من السواح .. وادخنا بتحسرس

الاثارات والا نسيبها للاشرار والمجرمين .. دا جيل يا أميرة .. بلاش

كلامى اتا .. الست الفرنسية تجولك ست طيبة بتحظر على عيني

العيال .. كلميها .. شوفى جالت آه .. جالت عايزين ينزلوك تحت

علشان يفرجوا عليكم كبارات البلد والسواح .. ويجولهم احنا

مذناهم .. واحنا فى الحبيجة موش لاجيين ناكل ..

كانت الأميرة وأصدقائها ينظرون الى المسدة وهو يتكلم ويشير

بيديه فى حماس كأنه راقص باليه ، أو ممثل تراجيديا صينية غير

مفهومة ..

وطوقت الأميرة عنق العدة بلراعها البض ، وصاحت :

- براقو .. مدهش .. تشرب واحد ويسكى ؟

وعرف المدة انها تريد ان تقدم الخمر له .. واحسن يفرزته انها تسخر منه .. واجتاحت ثورة القضب .. فوقف وامسك بكتفيها ، والجيمع في ذمول .. تجمدوا في أماكنهم لا يتحركون لانقاذ الاميرة .. وصاح المدة غاضبا :

– البتايات دى للمسخرة وشرب الخمر يا اهل جهنم .. تيجي ومعاكى شنتطة ومراية تملجيهما في الحيطه ، وتنامي ليلة وتشي .. احنا ما نجمدش فيها يا كفرة .. يا جلالات الدين ..

ثم ترك المدة كتفى الاميرة .. ونظر الى المهندس متحديا وقال مثلثا متوعدا :

– وجالتك لو جمعدوا هنا الليلة .. ح تضرب فيهم .. وح يصير بيتنا وبينك دم ..

وانطلق المدة في طريقه خارج الساحة .. والاميرة تسال في خوف بالفرنسية :

– ماذا يقول .. لماذا هو غاضب ؟ ..

وادرك المهندس ، انه لو طلب من السكر القبض على المدة في الحال ستدور معركة رهيبه والاميرة ما زالت في القرية انهم ولا شك محاصرون باهل الجبل ، يتحفزون للثوب عليهم في أية لحظة .. وهمس المهندس في اذن احد الامريكيين :

– ارجو أن تتسحبوا مع الاميرة .. ان الموقف خطير ، ووالتي الامريكي يسرعة ، وتشاور مع اصدقائه .. ثم اقتنعوا الاميرة بالانسحاب ..

وانفض الحفل . ولجا الجميع الى شاطئ النيل ، كفلول جيش مدحور يهرع رجاله الى العربات والمراكب للفرار في اسرع وقت .. ولم يبت احد تلك الليلة في القرية النموذجية .. حتى المهندس صاحب الاميرة الى وتربلأس ، وقضى ليلته هناك .

\*\*\*

كان المدة يروى في قصته مع الاميرة فالتخيل ما حدث ، وتدور لم رايى الصور والثرثيات وازداد احترامها للرجل الذى اجلس الى جوار واشمر برهبة نحوه ، لم اشعر بها نحو انسان آخر في الوجود .. كنت اقول لنفسى لو سالتى احد ما هو تعريف الرجل الحقيقي

هذا العالم .. لاجبيه على الفور .. انه عمدة هذا الجبل

وعمرنى احسابى بالقرف من مهمتى ، ما هذه السخافة التى جئت من اجلها ، ماذا أستطيع أن افعل في مشكلة من هذا النوع ، ماذا يريد منى مدير التحقيقات . انه في الحقيقة لا يريد شيئا على الاطلاق .. كل ما يريد هو ان ياخذ الروتين مجراه .. شكرى قدمها رجل اسمه حسين على من اهاالى الجبل ، يملن فيها ان اهل الجسنة لا يريدون النزول الى القرية النموذجية .. ويصل عن وجود سرقات واختلاسات في مواد بناء القرية ..

ان واجبى كموظف حكومة ، وكمفتش للتحقيقات ، هو ان استلعي حسين غنى وأتتاله : تلك الاسئلة الخالدة في كل تحقيق . ما كنت وما عودت : وما هو صناعتك ، وما هي تفاصيل شؤك .. وعلى بعد ذلك ان اطلب انتداب بعض المفتشين الادريين لتشكيل لجنة جرد مهدة القرية النموذجية ، وعلى هذه اللجنة ان تقرر : اذا كان هناك اختلاس أم لا ، فاذا لم يكتشفوا اختلاسا قرووا حفظ المرسوم وسجلت ادارة التحقيقات انتهاء التحقيقات في احدى القضايا .. وانتهت دوشة اللماغ ، على الرغم من بقاء المشكلة الحقيقية كما هي . ايقنت انى لا اقوم بتحقيق . انى اقوم بتزوير مشاعر المدة ومشاكل اهل الجبل ، ومتاعهم التى يمارون منها ، وقترهم الذى يقاسون منه واملمهم الذى يبحثون عنه في طعن الجبل

ان مهمتى كمفتش للتحقيقات ، هي طمس كين هذه الحقائق .. وتحويلها الى مجرد اسئلة سخيفة ، يجب ان نأمر فيها – بكل لياقة – عدم الدخول في التفاصيل ، التى تسمى الاميرة ، والثفا الذى يوجه اهل الجبل الى القرية النموذجية كمشروع يحظى برعايتها .. تخيلت مدير التحقيقات : « ومن يقرأ ، الملاكمة التى اقدمها لهنم التحقيق .. ان الحكومة اطلقت المشروع والتفتت عليه الاموال ، بدون ان تفكر في عمل يقدم به اهاالى الجبل بعد نزولهم القرية .

سترتجف يد المدير وهو يمسك بالاثرة ، وسيقرر لى ساخرا : – انت عامل مصلىح اجتماعى والا ايه .. دا مرش شغلك يا استاذ .. انت تحقق في التهم المرحجة بس . فيه اختلاس والا شيش .. دى كل مهمتك .. احنا مالنا ومال ان كان فيه شغل والا مفيش ..



روح غير المدكرة دى .. والا اكتب واحدة مائية ، انا ح اقطع المدكرة دى .. لحسن نترند كلنا وتبقى مقيش حساجة اسمها ادارة تحقيقات ..

ثم سيمسك المدير ييدى ويقرب فمه من اذنى ويهمس قائلا :

— ثو وكيل الوزارة شاف المدكرة دى .. ح يقول عليك شيوعى .. وسانزع ولا شك من هذه التهمة .. لاني لا اريد ان يقيض على ، واقضى بقية حياتى فى السجن ، وسأكتب مدكرة اخرى خالية من كل الحقائق التى لمستها ، والتى اشعر بها مخفورة فى قلبى ، وسأقسم بعد ذلك رائحة عفن بتصاعد من داخلى . رائحة شمير ميت ..

وخرحت من افكارى على صوت المدرة يقول : فى صوت ابى : مالك يا ابى .. انت تميسان .. السس غابت ولا كتش لجمة ..

كان يكلمنى فى حنان غريب .. حنان مفاجىء .. كالزعر الاخضر الذى ينبت بفتة وسط الرمال والصخور الجافة المحيطة بنا ..

وأشار المدرة بيده ، والتفت ورأتى الى حيث يشير ، فوجدت امرأة تتقدم منا ، تحمل بين يديها « مشنة » عليها الطعام .. وكانت قد جاءت به ، وقبعت فى مكانها فى انتظار اشارة المدرة ..

واكلت مع المدرة ، العدىس والجبن والبرتقال .. اكلت فى هم ، دون ان افكر فى قدارة الطعام ، او فى الصدا الذى يلصق بالصخور .. وشاع الروح فى حديث المدرة .. سالتى وهو يجول بأصابعه فى طبق العلىس ..

— انت متجوز ..

— له يا مدرة ..

فصاح المدرة :

— وايه الى معطل حالك .. ستنى لما تكبر والصبايا الزين متطلش فى وشك

فسالته بدورى :

— وانت متجوز يا مدرة ؟

فرفع يده الى السماء وقال :

— كتير ... كتير يا ولدى ..

— كام واحدة اتجوزتها ..

فتنظر المدرة الى الاقنق .. ليتذكر عدد زوجاته . ثم عدل عن التفكير وقال فى ياس بعد ان استمضى عليه الحساب :

— كتير .. كتير ..

— وآخر واحدة اتجوزتها ..

فتنهذ المدرة فى اسى :

— الله يرحمها .. ماتت صفار .. وبمديها متجوزتش ..

— ماتت ليه .. كانت عيانة ؟

فتردد قليلا ثم قال .

— تنترت ما مرضت ..

وسكت المدرة ولم يصف الى كلامه شيئا .. وتركنى نهبا للخواطر

.. هل قتلت ؟ .. ام ماتت فى حادث ؟

ونظرت الى المدرة ، فرايت وجهه ساهما لا يريد الانفصاح من شىء ...

وشايتنى انى ازعجه ، ان طيحت كحقق ما زالت تلازمنى وتدمنى الى توجيه الاسئلة والالاحاح فيها .. حتى اصبحت انجح نفوس الناس ، وانطلق على مشاعرهم ، حتى انا اشاركهم الطعام ..

ان المدرة ينادينى « يا ولدى » لانه لا يستطيع ان يعاملنى بمعاملة رسمية .. فهو يقسم الناس الى غرياء واصدقاء . اعداء واقارب ...

ناس يكرههم وناس يحبهم .. عواطفه ومشاعره مدربة على معاملة البشر لا الموظفين .. مجتمعه الذى يعيش فيه لا يعرف الجاملات والتقاليد الاجتماعية .. انه يمنحنى الان قلبه ، ويقان ابنى منحه قلبى ..

وتنح تشابه النيش وألقح منا فى طبق واحد . ومع ذلك ، هانذا عاجز عن الارتفاع الى المستوى الذى يعاملنى به المدرة .. ما زلت لا اعرف كيف اتخلص من هذا الموظف المحقق الذى يكمن داخلى .

وفرغنا من الطعام ، ومشينا فى اتجاه الكهوف .. وانا افكر بينى وبين نفسى فى طريقة لبقه اسأل فيها عن « حسيب على » دون ان اشعره ، بانى مفتش مفتش للتحقيقات .. وما زلت صديقا له ..

وعلى امتداد الاقنق رايت على العود الشاحب بعد الغروب خلقتين كبيرتين متباعدتين من الرجال والنساء .. الرجال وحدهم ، والنساء

وخدمهم .. وهم جميعا يجلسون القرفضاء فوق الرمال  
ودققت النظر الى الحلقةين البعيدتين ، ولم أصدق ما رأيته ..  
انهم يقضون حاجاتهم .. انهم الآن في التواليت .. في مراحيض  
الجيل ..

ولم أستطيع ان امتنع نفسي من سؤال العمدة :

— يبيعملوا ايه يا عمدة ؟

فاجاب العمدة في بساطة :

— تعال يا ولدى نجمع معاهم وننساامروا ..

ووقفت في مدائلي لا أنزحج . كنت على استعداد ان اصنع كل  
شيء ، الا ان اخلع بنظروني . واجلس مع الرجال اتصلي حاجتي في سكتة  
سمر ..

وقلت : للعمدة مستعظما :

— اعمل معرف .. اعفني من الحكاية دي

فضحك مله شدتيه وصاح :

— انا بضحك عليك .. اتوا يا رجالة البندر متجعدوش تعمملوا

زينا كده ...

كان يضحك : وكأنه لا يكثر بشيء في هذا العالم .. وكانت  
ضحكاته تذكرني بان الليز قد اقبل ولابد لي من العودة  
واستجيمت شجاعتي وقتلت له :

— الوقت اتاخر يا عمدة .. وفيه حاجة لازم اكللك فيها .. حسين  
ضئ فين ؟

يزود العمدة في منرت خفيضة :

— حسين على .. حسين على ..

فقلت له لاستجيم على الكلام :

— التي كتب اسكوي بالنيابة عنكم ..

وراجعش العمدة قائلا :

— احنا انسكينا كثير ..

— لكن فيه شكوي كتبها حسين على ..

— وانت عايز ايه شئ ؟

— عاير اسماء في الشكوي اللي كتبها

فهز الـ .. واسد في عجب وقال :

— حسين على لا يعرف جرایة ولا كتابه

وهتفت في فرح ولهفة :

— يعني حسين على موجود .. ممكن اكلمه .

واطرق العمدة برهة ثم قال :

— ما اعرفش هو موجود والا سافر .. استنى شويتين اتاديلك

مراته ..

وتركني العمدة بالقرب من الكهوف الخالية . واسرع مبتعدا في اتجاه

حلقة النساء .. وسمعت صياحه مناديا :

رايت امرأة تخرج من حلقة النساء ، وتتقدم ناحية العمدة وما كادت

تقترب منه ، حتى سالها بصوت عال :

— جوزك فين ؟

— سافر ..

— سافر فين ؟

فقالت المرأة وهي تتقدم منا :

— راح الواحات ..

— واحة ايه ؟

— ما اعرفش ..

— دانو متجوزين من جمعه يا بت .. سافر كيف ؟

— ما اعرفش ..

ورابت المرأة عن قرب . صبية صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة  
من عمرها ، ملامح وجهها طيبة حزينة ، لها شفتان غليظتان واسمتان  
وجسم قصير نحيل .. انها عروسة .. عروسة هجرها زوجها بعد  
اسبوع من الزواج ، وسافر الى واحة مجهولة ..

وشمرت بالفيظ نحو حسين على وقتلت لها :

— وح يرجع امتي حسين على ؟

فاجابت بنفس النغمة الهادئة :

— ما اعرفش ..

— وانت موش زعلانه علشان سالك وسافر ..

ولم تجب على سؤالي .. خيل الي انها لم تفهمه ..

والتفت العمدة الى وقال :

- اجيب لك واجل ثانى ..  
فقلت له :

- لا .. انا عايز حسين على  
واحترج المدة ..

- كلتنا شاكيين المنفس ..

معلش يا عمدة انا لازم ارجع دلوقت ..

وحاول المدة ان يقتضى بقضاء الليلة معهم .. ووعدنى بالاستماع  
الى غناء ورقص طوال الليل ، ولكننى صمت على المودة ..



## الفصل السادس

لم يفلح المدة فى اقتناعى بالبقاء ليلا فى الجبل .. كان الظلام  
يخفق بنا فى سرعة مخيفة ، وكل الاشياء من حول تقوص شيئا  
فتشيئا فى سواد ممت ، فاحس بدائع ملح الى مفادرة المكان فى  
الحال ..

لقد توطدت الصداقة واللفة بينى وبين المدة ، ولكن شيئا  
لم يتوطد بينى وبين الجبل نفسه .. انه موحش خشن لا ادرى  
كيف اطمن اليه واستسلم الى سخوره وكهوفه وسحاليه ومقاربه ،  
طوال فترة الظلام ..

وكانت زوجة حسين على لا تزال واقفة تنصت الى المدة وهو  
يلح فى بقائى .. ولملها كانت ترحب مع المدة ببقائى ، او لملها  
- وهو الاغلب - وقفت تنتظر لتتأكد من انصرافى من الجبل ..

كان شيئا مربيا يحوم حول هذه الزوجة الصبية التى تدعى ان  
زوجها هجرها فجأة بعد اسبوع من زواجه منها .. وهى فى  
نفس الوقت تبدو قائمة مستسلمة ، كان ما حدث شئ عادى  
ومتوقع ..

وخطر لى انها تكذب .. ولكن لماذا تكذب .. ولماذا يكذب  
المدة ايضا .. انه رجل صريح لا يخاف احدا ، ولا شك انه  
لو كان يعرف حسين على ، وانه فى الجبل لتاداه وقلمه لى .. ان  
المدة لا يخشى منى شئ .. فانا هنا وحيد ليس معى احد وفى  
حياته ..

والثقت المدة الى زوجة حسين على وتقدم منها ، وعجبت له  
وهو يهمس فى اذنها بكلمات لم اسمعها انصرفت على اثرها المرأة  
على عجل ..

وعاد المدة الى ، وقبض على ذراعى ومضى بى الى الاريكة التى

كنا نجلس عليها وهو يقول :  
- الشيخ طلباوى جاى هو وحمارة ، تركب عليها وتوصلك  
لحد المركب ..

وسالت العمدة فى قلق :

- الشيخ طلباوى جاى معايا طبعاً ..  
فصحك العمدة :

- الشيخ طلباوى جيوصلك لحد البر الشرجى .. دا راجل متملم  
فى سيوط وعاش هناك مع مرته .. وييجى يزور كل شهرين والا  
تلاته .. والليلة راجع لاسيوط ..

ودعشت كيف لم ار هذا الشيخ فى النهار ، وكيف لم يسرع  
الى لقائى وهو الرجل المتملم بين أهل الجبيل ، وهو اقدرهم على  
الكلام والانصاح عن شكاوهم .. وطرات لى فكرة ، قررت ان انقلها  
عندما اتفرد بالشيخ طلباوى فى طريق العودة ..

واقبل علينا شيخ مغمم ومعه زوجة حسين على وحمارة مسرعة  
تتقدمها ..

كان الشيخ لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، نحيفاً وشيقاً ، اتقيا  
فى ملابسه عمامته نظيفة تميل قليلاً على حاجب عينه اليمنى ..  
له عينان جذابتان مكرتان ، وأنف مستقيم ، وشفتان غليظتان ولكنهما  
لا توتران فى وسامة وجهه .. وكان يتكلم باللغة الفصحى ..  
وشعرت فى الحال انه يتباهى بنفسه على أهل الجبيل . ولحت  
العمدة ينظر اليه فى استمزاز صريح

وما كاد الشيخ يفرغ من مصافحتى .. حتى قال له العمدة فى  
صوت لاذع ساخر :

- مع السلامة يا ولد طلباوى .. يا مبارك يا راجل .. غرغرك  
تاخذ أختك تخدم على مرتك فى سيوط ..

وأدركت على الفور ان زوجة حسين على هى شقيقة الشيخ  
طلباوى ..

وقال الشيخ طلباوى فى ارتباك .. وباللغة العربية :

- انتهى الامر يا عمدة .. لا داعى لاثارة المشاكل امام إبيه .

ولم يرحم العمدة ارتباكاه .. صاح فيه بقسوة :

- الفجر مايميش الرجالة يا طلباوى .. مرتك تخشع على  
نفسها ..

تقاطعه الشيخ فى انفعال :

- يا عمدة جلت لك خلاص انتهيئا .. هى تجعد هنا كما تريد ..  
وانا اجعد فى أسبوط كما اريد ..

وعدل العمدة فجأة من هجومه وقال له فى لهجة الامر :

- وصل الافندى لحد الشط الشرجى

فاسرع الشيخ يقول لى فى تعلق :

- هذا شرف كبير يا سمادة اليه .. انا خدامك ..

ومرة اخرى لحت نظرات الاحتقار تشع من عيني العمدة . وتكاد  
تحرق جسد الشيخ طلباوى ..

وصافحتى العمدة فى شوق كبير ، وساعدنى على ركوب الحمارة  
وقد غلبه نثر كبير لفراتى .. ان وجهه اللئى بالقصور لا يخفى شيئاً  
من مشاعر قلبه .. انه على الرغم من مظهره الخشن الجاف ..  
مخلوق شفاف ..

وسلم الشيخ طلباوى على شقيقته وودمها فى يرود .. ثم لكر  
الحمارة .. فانطلقت فى طريق العودة ، والشيخ يهرول الى جانبيه  
محاولاً ان يلائم بين سرعتيه وسرعة الحمارة ..

ولما ابتعدت الحمارة حوالى مائة متر ، التفت ورائى فرأيت العمدة  
ما زال واقفاً ينظر نحوى فى صمت ، ولوحت له يدي ولكنهما ظل  
جامداً لا يتحرك من مكانه ومن خلفه تقف زوجة حسين على صامتة جامدة  
هى الاخرى .. كأنهما تماثلان ..

وتوغلتا فى الطريق الصحراوى ، وفى ظلام الليل ، ولم اعد اسمع  
سوى ديب الحمارة ، ووقع اقدام الشيخ طلباوى على الأرض ،  
وصوت الريح التى كانت تهب جافة قوية ..

ووجدت الفرصة مناسبة لالتحق من الفكرة التى طرأت لى من  
الشيخ طلباوى

سالته فجأة فى سلاحة تامة :

- خلطك اللى كتبت يه الشكوى كان جميل قوى يا شيخ  
طلباوى ..

وتهلل وجهه فرحاً .. لقد وقع فى الفخ .. انه كاتب الشكوى

الوقعة باسم حسين على الذى لا يعرف القراءة والكتابة  
ثم خاضت الإستمارة من شفتيه ، وظهر القلق فى عينيه . أدرك  
بسرعة أنه فضح نفسه ..

وفتح فمه ليقول :  
- المدة هو الى ..

وقبل أن يكمل حديثه .. كنت اقول له بصوت عال يقطع على  
صوته ، حتى لا اسمع أتكاره لكتابة الشكوى . ولاشجعه على التورط  
فى الاعتراف ..

صحت قائلا :

- اسمع يا شيخ طلباوى .. انا عارف انك موش موافق على  
الشكوى .. وعلى العموم انت مالكش دعوة . لانك موافقتش  
عليها ..

فانطلق فى الكلام وهو يلهث :

- سيدى .. والله وأنا اقول لك الصديق ، انا على طول مقامى  
معهم ، وكونهم اهلى ، لم استطع ان اقمهم .. لقد الحوا على  
فكتيت الشكوى لاني الوحيد بينهم الذى يقرأ ويكتب .. انا يا سيدى  
مدرس بلجا الايتام باسيوط صحيح يا سيدى البنات لا تنفعهم ..  
وان لقمة العيش تمسكهم هنا فى الجبل ولكن لو سألنى رايى ..  
لو كان لى شرف التحدث الى المسؤولين لطلبت لهم نصيبا من اموال  
البر .. ومن عيون الخير لقد اوصى الرسول عليهم وهم قوم فقراء ..  
ولكنهم يحتجون على .. انهم مجانين يا سيدى .. لو رضوا بالنزول  
الى القرية الجديدة لرضى عنهم المهندس والاميرة . انها اميرة عظيمة  
يا سيدى ذهبت اليها فى وئثر بالاس ورنمت الى مقامها السامى  
قصيدة كتبها ترجيا بمقدمها ، فنقحتنى خمسة جنيتها ..

ولكنهم معذورون .. انهم جهلاء كما لاحظ اليه . لا يعرفون  
شيئا من المدينة والحضارة ، ويوردون انفسهم موارد التهلكة

وشمرت بخسين جارف الى المدة وأنا استمع الى الشيخ  
طلباوى .. وكان يشير فى نفسى التفرق ..

واستمع يتكلم ويتكلم ، ويكرر ما قاله .. ثم سكث فجأة واطلق  
مرخة مدبوبة فى ظلام الليل ، واطلقت انا مرخة بلا صوت لم تخرج  
من لى فمزقت صدرى رعبا ..

برز امامنا فجأة رجل يسد الطريق يتقدم منا فى ثبات ، وكان  
الشيخ طلباوى قد تشبث بالحمازة التى وقفت مكانها وأنا معلىق  
فوقها لا أدري كيف انصرف ..

وهجم الغريب القادم على الشيخ طلباوى .. واطبق يديه على  
عنقه وهو يقول له :

- ان جيت هنا ثانى ح اجتلك يا طلباوى ..

والشيخ يردد فى ذلة :

- حاضر .. حاضر يا حسين ..

ثم التفت الغريب الى وقال لى صوت ملء بالكبرياء ..

- انا حسين على ..

وفى صمت هبطت من فوق الحمازة بمساعدته .. كان طويلا  
فارها ، يياض عينيه يلعب فى الظلام ، بليس جلبابا ابيض وخفا فى  
قدميه .. ومد يده الى صافحتى بقوة .. وهو يقول :

- يجبولولى غرضك تنكلم معايا ؟

ولم ينتظر ان يسمع شيئا منى .. عاد والتفت الى الشيخ الملعور  
وقال له مزمجرا :

- بتجول ايه للاندى يا طلباوى ؟

وصاح الشيخ مناقما من نفسه :

- وكيك زينا ما جلت له حاجة ..

كان الشيخ قد فقد لفته العربية الفصحى فى فمار اذرباكة  
وذعره .. ونظر الى مستنجدا كأنه يتوقع انى قادر على الدفاع عنه  
فى هذا الوقت ..

ولزمت الصمت ..

كنت بدورى افكر فى مصرى بعد هذا اللقاء المفاجئ بحسين  
على .. انه مختلف عن الانظار لسبب ما .. سبب خطير ولا شك  
وها هو يخرج من خيئه ، ويكشف عن شخصيته امامى ، هل سيتركنى  
بعد ذلك امضى فى سبيلى ، ام انه سيتخلص منى حتى يظل محافظا  
على اختبائه وقصة سفره الى ارجات ؟

انى لا اعرف سببا واحدا يدعو حسين على للاختباء ، ولا اعرف  
همة موجهة اليه ، فلا استطيع اذن الحاق اى ضرر به . ولكن

كيف اقتنع بهذا النطق ؟ انه يستعمل يديه وعضلاته القوية ،  
وتنظراته النارية في التهام مع الشيخ طلباوى ، هذا هو منتقله  
الوحيد فيما يبدو لى ..  
انى فى سارق ..

وأصر حسين على ان يتركنا الشيخ ، لانه لا يريدنى ان استمع  
الى كلامه ، او أسير فى صحبته .. زعق فى الشيخ ان يتصرف ،  
والشيخ يقول له فى مدلة ، ان العمدة هو الذى طلب منه مرافقتى  
الى الشاطئ الشرقى ، ولكن حسين على لم يكثر بكلامه ، وطرده  
وهو يكرر تحذيره له ، بالا يعود ثانية الى الجبل ، اذا اراد المحافظة  
على حياته ..

وانصرف الشيخ طلباوى ، وانا ما زلت واقفا الى جوار الحمارة  
انتظر الخطوة التالية التى سيقدم عليها حسين على .. انها الخطوة  
التي ستقرر مصرى ..

ورق حسين على يتأملنى برهة .. ثم اقرر له عن ايتسامه  
واسمعة ، لمحت لها أسنانه البيضاء وسط ظلام الليل . وفاجأنى  
بقوله فى لهجة عتاب :

- ليه مجمدتش معانا الليلة يا افندى

فقلت له وقلبى يخفق بالانفعال :

- العمدة قال لى انك سافرت الواحات

فضحك حسين على قائلا :

- العمدة وراجل عجوز .. يخاف علينا كلتنا .. واحنا مجلناش

للشيخ طلباوى يكتب اسبى فى الشكرى . جلنا له اكتب ان احنا

كلتنا شاكبين المهندس . ولما سألت عنى بالاسم العمدة ظن ان

الشيخ طلباوى عملها وغرضه يودىنى النيابة ..

وسألته :

- وعازو يوديك النيابة ليه ؟

فأجاب حسين فى ضيق :

- غرضه ياخذ مرتى معاه مسيوط .. خزيان بصدد ما تعلم من

عيشتنا هنا .. ماكنش غرضه الى اتجوزها ..

وشعرت بصدقه وبساطته ، رغم طول غرضه وقوته البدنية

الظاهرة .. ولكنى لم أطمئن اليه كل الاطمئنان ..

وسألته من جديد :

- لكن ايه الى جايك دلوقت

فرفع صوته فى كبرياء :

- جيت للعمدة .. انا راجل مستخياش زى النسوان ..

ثم ثبت عينيه فى عيني وقال :

- العمدة اخذ عليك عهد الله .. متضرناش ..

فقلت على الفور :

- صحيح ..

وغمرنى أحساس قوى ، يشبه اليقين ، ان حسين عل له شأن فى

كل أحداث الجبل .. صوته القوى ونظراته الثابتة .. وكبرياؤه

.. كل هذا يتأكد شيئت انه الرجل الذى قلب « الترولى » وحرق

الشونة فى القرية النموذجية ..

وتملكنتى رغبة فى تحدى حسين على .. كبرياؤه كانت تثيرنى

ووجولته تستفزنى رغما عنى وتطالبينى بامتحانها ..

كنت أريد امتحان رجولته ، لانى أريد ان المسها ، وأراها واضحة

جليه امامى .. ان هذا النوع من الرجولة تفتقد فى حياتنا فى

القاهرة .. هذه الصراحة المباشرة ، لا نعرفها ولا نقابلها ، هذه

القدرة الخلقة على المواجهة وتبادل الثقة بسرعة وبمجرد ترديد

قسم أو عهد .. شئ لا نتعامل به فى حياتنا ومن الصعب علينا تصديق

وجوده ..

كنت أريد ان اتأكد من وجود هذه الاشياء ، وما هو حسين على

يقول لى انه رجل .. ولم يبق امامى الا امتحانه لاتأكد من هذه

الحقيقة ..

ثم شئ اخر هام .. لو انه رجل حقا ، فلن يقدم على خيانتى ابدا

.. لن يقتلنى فى هذا الجبل غيلة ، ليكتشفوا بقايا جثتى صدقة

بعد اسابيع ، وقد نهشتها الصقور والدئاب ..

يجب ان أواجه بصراحة ، كما يواجهنى هو بصراحة .. يجب

ان افتح له قلبنى ، وأخرج منه كل اسرارى .. يجب ان أكون جريئا

معه .. هذه هى فرصتى الوحيدة كى اكسب احترامه ، ان أكون

رجلا مثله ، ومن طرازه ، أتجاهل صفتى كمحقق ، وأنسى تماما حيل

التحقيق ومكره .. انه سيحس بفرزته اى التواء فى مقاصدى ،

وسيحترقني ، وإذا احترقني فلن يعاملني ماملة الشيخ طلباري  
لقد أبقى على حياة الشيخ . لأنه شقيق زوجته ، أما أنا .. فليس  
هناك سبب واحد تأفه ، يدعو له الإبقاء على حياتي ، إذا ما  
احترقني ..

ورفعت رأسي في كبرياء تعلمتها من حسين علي ومن العدة وأهل  
الجيل .. ولم أعرف لها مثيلا في حياتي . في المدينة من قبل ،  
وقلت له :

- اسمع يا حسين .. احنا دلوقت رجاله يتكلم بعض .. وأنا  
أقسمت اني ما أعملش حاجة تضركم .. وكلت عيش وملح مسح  
العدة .. تقدر تقول لي ايه حكايتهم بالضبط .. انت عارف انهم  
يقولوا عليكم حرامية بتسرقوا الآثار .. وعارف انكم متهمين بقلب  
الترولي ، وحريق الشونة في قرية المهندس .. تفتكر الحكومة  
تسبيحكم كده تاخذوا الآثار .. ودي حاجة مهمة للبلد كلها .. انتم  
بتسبوا الآثار . والحكومة « عايزاها » تشيلها في المتاحف .. دي ملكنا  
كلنا .. ملك بر مصر كله .. ح تعملوا ايه .. ح تستمروا على  
الحالة دي .. انتم وراضين بالعيشة دي ..

ولم يجب حسين علي في الحال .. أطرق براسه .. ثم رفعها من  
جديد وقال لي في هدوء :

- أنا ح أجولك حكايتنا .. وانت تحكم بالمدل ..  
وطلب متي حسين علي أن تجلس في مكان ، يروى لي فيه قصته ..  
واسمك بالحجارة وقادها ، ومشييت لي جانيه ، وخرجنا من الطريق  
الجبل ، ومشيينا وسط الصخور والرمال أنا أتعثر في مسيري ،  
وهو والحجارة يمشيان بسهولة كأنهما يجتازان طريقا من الاسفلت  
في وضح النهار ..

واقبلنا ثانية على الكهوف .. ورأيت بصيصا متناثرا من النيران  
من بعد .. وسمعت أصوات ناي ودف وغناء ..

ان العدة قد دعاني الى حضور الرقص والفناء معهم ، فرفضت  
وها انذا عائد اليهم ..

وسالت حسين علي :

- احنا راجعين ثاني للعدة ؟

فقال لي :

- لا احنا نتجهد لوحدينا هنا جريبين منهم .. وأجولك كل اللي  
في بالي ..

وفك حسين علي سرج الحمار ، ووضعته على الارض كوسادة من  
الخيش أجلس عليها .. أما هو فقد جلس القرفصاء ..  
كنا متجاورين كصديقين يتناجيان .. في جو حالم .. وأصوات  
الاغنية والمزامير والدف يصلان إلينا في وضوح ، ولكننا لا نرى أحدا  
من الإهالي .. كان الصوت ينبعث من مدياع كبير في السماء ، يتقل  
الصوت صافيا حزينا ..

وقال لي حسين علي وهو يهز رأسه مع الاغنية :

- اسمع يا أفندي أبو ليلة بيحول ايه ..  
كان صوت « أبو ليلة » قويا جخيلا وخزينا ، رتبيا في أنفاسه ولكنه  
ملء بالانفعال والشجن . وكان يروي قصة جريمة ..

انه يسأل « بهية » عن الذين قتلوا « ياسين » .. قتلوه وهو  
فوق ظهر الجمل .. لقد وجدوا جثته وملابسه سابعة في دعائه،  
حتى أن الطبيب خاف أن يقترب من جثته ..

ودهبت بهية الى الحاكم وأخذت معها مجاميا وقالت لوكيل  
النياية « المتهم الذي يقف أمامك مظلوم » .. ولكن وكيل النياية  
عوج طربوشه على ناحية .. وحكم بأربع سنين .. مستثنين في  
القصر العالي - اللوامن - وستين في الزنزانة

وكان حسين علي يردد الاغنية مسح أبو ليلة في بعض مقاطعها  
فيهمس في حراة « يا بهية وخبريني ع اللي جتل ياسين »

ثم يسكت ليمود مرددا :

« واحكم يا بهية النياية .. جدامك مظالم »

« عوج الطربوش على ناحية .. وحكم بأربع سنين »

« اتنين في الجسر العالي .. واتنين في الزناتين »

ثم يسكت من جديد .. حتى يردد مع « أبو ليلة »

وابكي لك

لم تبكينى

واشكى الوجيمة لمن

وحطيني على شمالك

وحطيني على اليمين أ

انه الان يسمر بحزن قائم ، ويأس مطبق .. ويطلب من بهية أن يرقد شمالها أو يرقد عن يمينها . ولكن ما الفائدة .. انه يتالم ..

وخيل الى أن حسين على ، تمعد أن يسمعي هذه الاغنية . كأنه يريد أن ينقل لي رأى أهل الجبل . في الحقيقين ووكلاء أليابا الذين يمجون طربوشهم على ناحية ، ويحكمون على المظالم في غير فهم لمشاكلهم ..

وتذكرت صديقي وكيل نيابة الأقصر ، وهو يلبس طربوشه في عناية ، قبل أن يذهب الى عمله .. ترى هل سمع هذه الاغنية ، وأدرك مفرها .. ولو كان سمعها ، ألم يفكر لحظة ما في أن هذا الشعر وهذا اللحن الحزين الصادق ، قد خرج من طبيعة الاحساس بالظلم .. الذي هو احد مظاهره ..

شيء مفرح حقاً .. ان يقع الظلم على هؤلاء الناس ، فلا يكون مواجهة الا بالغبية ..

وعجزت تماماً عن نقل مشاعري وأفكارى هذه الى حسين على .. كنت أريد أن أقول شيئاً ، ولكنني وجدت ان الكلام المادى سخيف مبتذل .. أمام هذه اللغة الشاعرية الرفيعة التي تتردد في اصداة الجبل ..

ولاحظت حسين على صبتى ، بل لايد انه شعر بتماستي ، فقال لي يريد التشرية عنى :

- أبو ليلة عنده كلام كثير تانى .. يوم ما اتجوزت كان بيعجول ..

وانطلق يفتى :

« وانا نايمية يا زوزو .. وانا نايمية »  
« زطلق الشاديل .. وانا نايمية »  
« وانا وانت في التاموسية »  
« بيتي وما ينسك .. جارية وحشية »  
« يا حبيب .. وانحك نسوية »  
« أحسن أسبيك .. وتنى قايمه »

وقاضت نفسى بشعور من المرح ، وأذا انصت لحسين على .. انهم يمرلون الضحك والدلال في هذا المكان .. كم يدخر هؤلاء الناس في نفوسهم من انسانية راسية في الاعساق .. ان قصتي معهم متكررة ، تنلخص دائماً في لقاء جاف خشن ، اختفى فيه على حياتي ثم ينتهي هذا اللقاء باكتشافي لروح شفافة شاعرة .. وهذا ما وجدته في لقائى بحسين على ..

كنت في الاقصر انظر الى هذا المكان عبر النيل ، فاشعر بالغوص وتنشأني رغبة وتشتريرة .. وأؤذ أحس اني لو نظرت الى الشروق الشرقي من حيث جنت ، لانتابتني نفس الريبة والقشيرة وربما الأستغزاز أيضاً من الحياة التي تعيشها هناك كأنه مجرد مناظر آدمية .. تتحرك وتتكلم وتضج وتصرخ أحياناً .. دون أن يكون لها احساس عميق بأي شيء ..

كيف تفعل السأية أهل الجبل الى حضارة أهل المدن دون أن تظلمها .. وكيف تحتفظ بتطور أهل المدن وتقدمهم دون أن تصاب

أعماقهم بالفراغ ، ليتحولون الى نفوس خاوية فارغة ؟

هل يستطيع حسين على أن يعيبنى على هذا السؤال ؟ لايد أن عنده اقتراحاً ما .. فكرة جميلة ، كذلك الاغنية الجميلة أتت يريدها في سرور وطمئنان .. لايد أنه قادر على أن يقدم حلاً للمأساة التي وقعت .. عندما استطاع أهل الجبل بالتقوية الشراعية ورفضوا الزواج البهلا .. انه اصطدام حطير بين أسانبة صياذقة سالحة خائفة وبين مدينة ناجحة سطحية ثقيلة ..

واعترضتني ابتسامة عريضة على وجه حسين على .. ابتسامة متفائلة .. ثم عاد الى وجهه كبريائه وترفعه .. وشيخ يأنف في الهواء .. وبدأ يروي قمتشه

\*\*\*

يا حسين يا حسين .. يا حسين ! ..  
هذا النداء ، هو أول شيء يذكره حسين على عن حياته في الجبل ..  
صوت أبيه ، وهو يردد كلمة « حسين » في ثلادين سريعين



كطلفتين متتابعتين من بندقية ، يعقبها نداء طويل مطوّل ، ينساب في الفضاء وينفذ الى داخل الكهوف ، ويردد الجبل اصداؤه ..

يا حسـب ...

كان الصوت يصل الى حسين ، اينما كان ..

يصل اليه وهو يلعب وسط الحصى والصخور مع اخته مريم ويصل اليه وهو يتبع أحد السياح محاولا أن يبيعه تمثالا صنعته ابيه .. وعلمه كيف يفتح الخواجات بأنه تمثال قرعوني .. ويصل اليه وهو ينفض الغبار عن حذاء سائحة لقاء ترش صنعته له .. ويصل اليه وهو يسر مع شقيقته بصحة بعض النسوة في طريقهن الى النهر ، لاحضار الماء .. او وهو يجلس مع بعض الصبيان ساعة الغروب ، يتسامرون ويروون القصص ، ويقضون حاجاتهم في نفس الوقت ..

كانت علاقة حسين بابيه ، علاقة سوية . علاقة نداء متمصل من الاب ، وتلبية للنداء من الابن ..

كان حسين يعرف فزعا الى ابيه كلما ناداه ، لانه يعرف انه لا يستطيع الحركة .. انه ميتور الساقين ..

وغالبا ما كان الاب ينادى على ابنه حسين ، ليرسله الى « الخواجاية »

وكان حسين يفرح بهذه المهمة ، ويتنافس مع شقيقته مريم في التيام بها ، فيقفز فوق المنسوخ ، ويعدو فوق الزمان ، وربما تبعت مريم وهي تجري زاهية ، ويرق من باب في سور حديقة صغيرة ، ويدق على باب بيت من طين ، فتفتح له الخواجاية الباب ، وتمسح بيدها على شعره ، وتعطيه قطعة حلوى ، واحدة له والثانية لمريم اذا جسات ممسكة ..

وينقل حسين الى الخواجاية رسالة ابيه .. وهي رسالة واحدة لا تتغير « ايريا بجوك عدى عليه بعد المشا » ..

ومع ظلام الليل ، تلبى الخواجاية دعوة الاب ، وتجلس الى جانبه ، يتحدثان عن الكنز ..

ولم يفهم حسين على معنى كلمة « كنز » حتى كبر ، ولكنه كان يدرك على نحو غامض منذ البداية ان صلة ابيه بالخواجاية وان حديثه معها

الكنز هو مصدر أهميته بين اهل الجبل .

يبدو ان اياه يعرف اسرار كثيرة من الجبل .. اسراراً يهمس بها جانية ، وللمدة احيانا ، ولولا هذه الاسرار لما كانت للاب ايسة

هيمية ، ولا صبح عيشا تقيلا على اهله ..

اذا مرض ابو حسين ، تلقى الجميع لمرضه ، وتترك « الخواجاية » كل « » وتلازمه في كهفه لتعالجه ، ومرميين نقلته الى دارها ، وارقدته مريها ، وثامت هي على الارض الى جواره ، حتى زالت الحمى عنه ..

وكانت الهيمات بين ابو حسين والخواجاية او الممعدة ، تنتهي باجتماع الرجال في احد الكهوف ليلا ، ليبدأوا « كحت الجبل » ويستمر « الكحت » شهورا ، وفي احدى المرات استمر « الكحت » سنتين .. ليكتشفوا في النهاية ان الكنز ، استولى عليها اجدادهم ، وتصرّفوا فيها مرة واحدة - منذ خمس سنوات - وقامت المعجزة واكتشفوا مقبرة

غير مسروقة لاحد الاشراف الفراعنة ، وجدوا فيها بعض التماثيل المرمية .. اخذتها « الخواجاية » ..

والمعدة هو الذي حدد الثمن . قالت له الخواجاية « اللي تطلبه يا عمدة » وتكر المعدة طويلا ، ثم رفع رأسه ، وقال لها في انفعال وحماس « الف جنيه » .. قالها وكأنه يطلب منها القمر ، ولم تقل الخواجاية شيئا ، مدت يدها الى صدرها ، وأخرجت منه القمر ..

أخرجت من بين يديها الف جنيه ووزع المعدة النقود على الجميع .. فاشترتوا ملابس جديدة اشترتوا حميرا وبقارا .. كل الحمير والبهاائم الموجودة الان في الجبل، جاءت بعد اكتشاف تلك المقبرة ..

وتزوج الممعدة مريم .. ووجد حسين نفسه ، أهم شيان الجبل اكثرهم نفوذا ، بعد ان تزوج الممعدة اخته ..

اما ابو حسين ، فكان غير راض عن هذا الاكتشاف .. ما قيمة بضعة تماثيل من الرمر .. انه يريد مقبرة فيها ذهب وجواهر من اللاس .. انه يحلم بالفنى الواسع .. والمال الذي لا يحصى ولا يسعد ..

وماد ابو حسين الى نفسه مع « الخواجاية » .. الهمس أصبح في

دمه يلمن عليه وكأنه يعيش من أجله ..

وأنتاب حسين على خوف شديد من همس أبيه .. كل همسة الجليل من المقبرة القديمة التي حاول الوصول إليها يوما ما ، منذ زمن بعيد لا يذكره حسين ، ولكنه يعرف انها كانت السبب في بتر ساقه أبيه ..

ما زال الأب ، بعد كل السنين التي مضت ، وبعد فقد ساقه يفكر في تلك المقبرة ..

الرداب الطويل الذي « كحته » يسدا من داخل الكهف الذي يسكن فيه ، وقد غطاه بالحجارة ، ومنع أى واحد من الاقتراب منه ، ولكنه يضي الساعات الطوال داخل الكهف وعيناه لا تتحولان عن مدخل الرداب .. هناك في الداخل ، وعلى بعد عشرين مترا « كحتها » أبو حسين بعموله ويديه واظافره .. هناك انهارت فوقه الصخور التي هشت ساقه ، ومنعته من مواصلة التقدم ، ومع ذلك فهو لن يستريح حتى يتقدم ، ويواصل الكحت ..

ولم يحدث الأب ابنة عن رغبته أبدا ، بل تحاشى دائما ذكر أى شيء .. فظل الرداب شيئا غامضا بالنسبة لحسين يذكره كما يذكر أمه التي ماتت ، دون ان يعرفها .. الرداب وأمّه والمجهول والحزن اشياء مختلطة دائما في صدر حسين ، اشياء لا يستطيع ان يعرفها ، ولا يستطيع ان يتكلم عنها مع أحد ، او يتخيلها بينه وبين نفسه صورة واضحة مفهومة ..

ولكن هاهو الأب فجأة ، يعود الى الرداب ويهمن بالحديث عنه مع « الخوجاية » وحسين ينصت في صمت الى همس أبيه ، فيستولى عليه قلق وخوف ، دون ان يجرؤ على قول شيء لايه .. ماذا يقول له .. لا شيء يستطيع ان يقوله ، احساسه غامضة لا يقوى على تحويلها الى كلام ..

وتكلم الأب لأول مرة من الرداب مع ابنة حسين .. روى له كيف بدأ الكحت في هذا الرداب ، وعمره عشرون عاما . وكان حسين في الثانية من عمره ، ومريم ما زالت طفلة رضيعة .. كان يقوم بالعمل وحده ، لانه أراد ان يحصل على الكنز وحده .. كان يريد كل ما في المقبرة من ذهب وجواهر ليضعها تحت اقدام « جازية » أم حسين ..

كان يريد ان يغطيها بالحرير والذهب ، يريد ان يضمها في قصر كبير يقيمها لها على شاطئ النيل ، يريد ان يأتي لها بالخدم والحشم ، ويرسل اولادها الى المدارس .. لم يتصور أبدا أنه يحلم ، كان ما يريد حقيقته ليس بينه وبين الوصول اليها الا جيل .. وقرر ان يفتت هذا الجيل ، ومضى في محاولته شهرا بعد شهر ولم يوقفه من مزه سوى انهيار الصخور فوقه ..

وجرت « جازية » أم حسين صارخة مولولة الى الخوجاية الفرنسية التي جاءت حديثا الى الجبل واستقرت فيه مع زوجها عالم الآثار ..

كانت الخوجاية قد تعرفت بنساء الجبل ، تعالج ميون اطفالهن بالقطرة ، وتقدم لهن كل ما يطلبن من مساعدات ..

وجاءت الخوجاية مسرعة ومعها زوجها واشتركا مع رجال الجبل في نقل أبو حسين من تحت الصخور التي وقعت فوقه ونقلوه الى مستشفى بالشاطئ الشرقي في الاقصر ..

وعندما حقق البوليس في الحادث ، لم تقل « الخوجاية » شيئا عن الرداب الذي رآته ، وكذلك فعل زوجها .. واعترف لهما أهل الجبل ، بحميلهما الكبير ، واطمانوا اليهما ، بعد ان انتقد أبو حسين من السجن ..

ولما عاد أبو حسين الى كهفه بعد بتر ساقه ، جاءت الخوجاية تزوره ، وحديثه عن الآثار والكنوز المدفونة داخل الجبل ، وقال لها أبو حسين انه يعرف اماكن قبور كثيرة ، وقالت هي له ، انها على استعداد لشراء كل ما يحصل عليه أهل الجبل من آثار وكنوز ، وستمنحهم الثمن الذي يطلبونه ، وسيتقدم زوجها لهم ، كل ما يطلبون من مساعدة ..

ورضى العمدة بهذا الاتفاق ، ولكنه سخر من مساعدة لساء الاناث .. هؤلاء العلماء لا يعرفون شيئا عن المقابر الحقيقية ، انهم يفتنون الكتب ويقرأونها ، ثم يحدودن مواقع لا يمكن ان يجدوا فيها مقابر .. أهل الجبل يحسون بغيرتهم دون ان يقتنصوا كتابا او يقرأوا صفحة واحدة ..

واعتمز أبو حسين اول الامر مواصلة الكحت في سردابه الذي فقد فيه ساقه بمساعدة أهل الجبل ، والخوجاية وزوجها عالم الآثار ..

ولكن لم تمض شهور ، حتى ماتت زوجة أبو حسين بالحمى فحزن عليها كما لم يحزن على ساقيه ، وطرد الجميع من سردابه ، وأغلقه دونهم بالحجارة وقبع في كهفه يحرسه ، وهو يجتر في قلبه الاحزان أصبح « كحت » سرداب أبو حسين ، بمثابة « كحت » فى نفسه ، نهش في لحمه وعقله ، فتفتت في امله وحلمه ، اقتحام وتلفل على حزنه الخاص الدفين لزوجته التى ماتت ..

ويست الخوجاية ، ويس اهل الجبل من اقناع ابو حسين بالاستمرار فى كحت ذلك السرداب ، وانصرفوا الى مواقع اخرى اشار عليهم بها أبو حسين ..

ومضت السنون ، وفي خلالها سافرت « الخوجاية » مع زوجها عالم الانار الى فرنسا ، ثم عادت وحدها ، وقالت لهم انها لم تحمل الحياة في بلدنا ، فقلمت صلتها بكل ماضيها .. حتى زوجها ، وعادت اليهم لتعيش في حماهم ، ولتستأنف معهم البحث عن الكتوز ..

واكتشفوا عدة مقابر مسروقة .. ثم كانت تلك المقبرة التى وجدوا فيها التماثيل المرمية ، وفي اعقاب اكتشافها انتفض قلب أبو حسين بحلمه اليائس القديم ..

اعترف الأب ، لابنه حسين على ، بأنه صبر طويلا على احزانه حتى تزوجت ابنته مريم من العمدة ، وكبر حسين وأصبح رجلا .. انه يرى ابنه يتحرك ويمشي بساقيه ، فيظن ان ساقيه المتورتين قد عادتا اليه ، وعاد اليه شبابيه ، واستيقظ الامل اليائس في قلبه

سيفوز حسين على بالكتز المخبره داخل السرداب ، ولن يكون هناك احتمال لتكرر مأساة انهيار الصخور .. لن « يكحت » حسين وحده ، سيشارك معه اهل الجبل وسيساعدونه ، لقاء مساعدة أبو حسين لهم ، بانزادهم الى تلك المقبرة التى فتحوها ، وحصلوا على الف جنيه ثمنا لتماثيلها المرمية ..

ولم يستطع حسين على معارضة ابيه ، رأى في عينيهِ بريقا غريبا . انه انكاس الذهب والماس اللذين يراهما في خياله ويتوقع الحصول ليهما ..

ورضع حسين لمخيشة والده حتى لا يطلقه وقضه هذا الجريق الذى مح فى عينيهِ ..

وبدا « الكحت » فعلا في السرداب المهجور ..

ولكن ظهرت خلال « الكحت » امراض غريبة على أبو حسين حتى خيل لاهل الجبل ، ان الرجل بدأ يفقد عقله . كان صوته يرتفع لى صوت الماويل وهى تفتت الصخر صارخا :

— يا حسين .. ابوك عاجز يا حسين ما تفوتش ابوك وحده يا حسين ..

ويجيبه حسين فى دهشة :

— افوتك كيف يا بوى ..

فصرخ الاب فى الم حاد ، ويزحف على يديه .. ويعلق في الرجال بعينين ملتهتين ، ويستهم في حرقه :

— كلكم هدارين .. ح تخطنوا الذهب وتسيبونى وحدى هنا .. فردد عليه واحد من الرجال :

— ما تجلس كده يا أبو حسين .. دا احنا كلتنا ايد واحسدة .. تاوتك كيف .. يا راجل عيب الكلام ده ..

ويضرب ابو حسين بكفيه فوق رأسه ويلطم خديه مولولا :

— انا عاجز .. مين ح يحلمنى .. انا حلمى تجيل . اوعوا تفوتونى يا رجاله .. اوعوا تفوتونى ..

وأصبح « كحت » السرداب ، مهمة شاقة على الرجال .. ان تفتت الصخر أسهل من تهدئة أبو حسين .. ومحاولة منعه من اعتراض الرجال أثناء عملهم ..

وفكر حسين في احدى الليالى ، ان يخرج هو وبقية الرجال من داخل السرداب وصاح في وجه ابيه ، انهم لن يستمروا فى الكحت .. ولكن الرجل زحف واداهم ، والدموع تنهمر من عينيهِ ، توسل اليهم الا يكفوا عن الكحت ، وكان يقترب من الرجال ، ويكاد يقبل اقدامهم ، واحتضن ساقى ابنه ، وبكى متشنجا ، يرجوه الا يهجر مع الرجال السرداب ، وزحف الى خارج الكهف وأقسم الا يعود الى داخل السرداب ، حتى ينتهوا من عملهم ..

وجاءت مريم وجلست مع ابيها وقضت طوال الليل تحدد وسمى عنه ، وهو يسك يديها ويقول لها في ذلة بين وقت وآخر :

— مريم .. نصيك يا مريم .. فتحي ميثيك .. ابوكى عاجز  
 ما يجلدش يحوش عنك ..  
 فتجيبه مريم فى حده :  
 — هو ده وجهه يابوى ..  
 ويعود الاب يتوصل اليها :  
 — اوعدوا تفوتوني يا مريم .. تخدوا الكثر .. وتفوتوني اموت وحدى  
 هشا ..

وتصبح مريم :

— اسكت .. اسكت يابوى ...

حتى ظهرت تبشير الصباح . وخرج الرجال مكدودين مترين  
 من داخل الكهف .. وذهبوا الى كهوفهم ليناموا ، وثابت مريم فى  
 كهف ابيها ذلك النهار ..

وفتحت ميثيها ، فوجدت الكهف خاليا والضوء فى الخارج ينبئ  
 عن الظهيرة ، ويحث عن ابيها فافتقدته ، وجرت الى خارج الكهف  
 فلم تجده حيث اعتاد الجاوس ، وعادت الى داخل الكهف فزات  
 الحجارة التى تسد مدخل السرداب فى النهار مرتوعة ، وانصت  
 فسمعت صوت طرقات تاتي من الداخل . وشعرت مريم بانقباض  
 فى صدرها .. ودخلت السرداب المظلم تبحث عن ابيها ..

ولم تصل مريم الى ابيها داخل السرداب بسهولة .. كان يضيق  
 بها احباطا ، فتجتو على ركبتها وتزحف بهما بضعة امتار الى  
 الداخل ، ثم تصل الى جزء فسيح كانه قبو ، فتقف تتحسس فى  
 الظلام طريقها حتى تصطدم راسها بالصخر فتصرخ مولولة :

— يا بوى .. انا جايالك يا بوى ..

وتزحف على ركبتها من جديد ، وهى لا تدري ما اذا كان الذى  
 يسيل من جبينها مرق ام دم من جرح فى راسها ..

ولم تسمع اجابة من ابيها .. كان الصوت الوحيد الذى يصلها ،  
 صوت طرقات منيقة سريعة فى الصخر ، تملو شيئا فشيئا كلما تقدمت  
 الى الداخل ..

ووصلت مريم الى جزء من السرداب يجب ان تزحف فيه على  
 بطنها ، وكانت تحس بصوت جلبابها وهو يتمزق ، ولحم فخذها

وهو يحك بالتراب وتلع الحصى الصغيرة ، وملا الفياح عينيها  
 ونفها وانفها ، فسمكت بشدة وهى تحس بالاختناق ، وبالكتراب  
 يدخل صدرها ، فيجمله ثقلا يكاد يمجز من التنفس ..

وتمددت مريم بطولها ، وهى عاجزة عن الحركة .. والربع يملأ  
 قلبها .. لو انها اتت بمصباح .. او انها اخبرت شقيقها حسين .. لو  
 انها قالت لزوجها الممددة .. واستسلمت مريم لرغبتها يائسة ،  
 والدموع تنهمر من ميثيها ، لولا صوت الطرقات من الداخل يدعوها الى  
 ان تتقدم للحاق بابيها ..

وجمعت مريم كل قوتها ، وجذبت انفاسا من التراب والهواء  
 الراكد ، ومضت تزحف وليس فى راسها سوى طنين الطرقات ، نسبت  
 ما الذى جاء بها الى السرداب ، وما الذى يدنها الى التقدم ..  
 نسبت جراحها ، وتمزق ثوبها ووخز الحصى فى لحمها .. نسبت  
 ان لها جسما ويدين وساتين .. كان الذى يزحف ويتقدم شيء فى  
 داخلها .. شيء مجنون لا تدري ما هو ..

وارطمت مريم فجأة بجسد ادمى ، وكادت الطرقات مدوية كان  
 المول يلقى فى راسها ، وصرخت مريم :

— يا بوى ..

واذا يد قوية تدنمها ، ويمول حاد يهوى على فخذها فيقطعها ،  
 وصوت ابيها يهتف فى جنون وعداوة :

— انت مين .. مين الى جاي يخطف الكثر منى .. ابعدوا  
 يا اشرار .. ح اجتلكم واحد واحد .. ح اموتكم ..

واطلقت مريم صرخات عالية .. اعقبتها صرخات ضعيفة .. ثم لم  
 يخرج منها صوت .. من مول ابيها قد مزقها اربا ، وكسر عظامها  
 الهشة حتى اصبحت تثيرا من اللحم ونفاسا من العظم وبركة من  
 دماء ..

لم يدرك الاب ماذا حدث .. كل ما حسبه ان عدوا جاء ليأخذ منه  
 الكثر فقتله ، ولما عاد السكون من حوله ، التفت الى الصخر واستمر  
 يضرب فيه من جديد ، وقد صمم ألا يكف عن الكعك حتى يصل الى  
 الكثر ، ويستولى عليه بنفسه ..

ولم ينتبه الرجال الى اختفاء ابو حسين ومريم حتى غروب الشمس :

يتجمعوا بلا مناقشة أو تردد ويسرعوا إلى مصدر النداء ..  
 وجاءوا بمصباح ، ودخل ثلاثة رجال يتقدمهم حسين على  
 السرداب .. تقدموا صامتين ، مسرعين ، في سرداب صامت كالتبر ..  
 حتى توقف حسين على فجأة ..  
 وتقدم الرجلان من خلفه . فصرخوا . وحسين على لا يصرخ ويده  
 متصلة على المصباح ، وعيناه لا تتحولان عن جنة مريم لا يكاد يتبين  
 ملائحتها ، والى جانبها جنة أبيه ، وقد حشمت رأسه صخرة كبيرة  
 دقتها ..

\*\*\*

قضى العمدة تلك الليلة لا ينيس بكلمة وقضى بعدها نهارين وليلتين  
 لا ينيس بكلمة .. جلس مطرقا ، لا يتحرك ولا يشرب ولا ياكل ولا  
 يتكلم .. وكأنه لا يتنفس ..  
 وأول كلمة قالها العمدة ، في فجر اليوم الثالث ، زفر في ضعف ،  
 وخرج منه صوت غريب يكاد لا يسمع :  
 - مريم .. استراحت ..

وقد العمدة سيطرته على أهل الجبل ، كان يجلس بينهم كالإبله ،  
 أو الطفل الصغير وهو يئكي ، ومن حوله النسوة يتدنن ، وهو لا  
 يقوى إلا على ترديد جملة واحدة : « مريم استراحت » .. حتى جاء  
 نهار ، ثار فيه العمدة على غير انتظام وصاح في النسوة من حوله :  
 - ماكنش جصدتي حاجة لنفسى .. جصدنا انهذ .. عيال يطرهم  
 الموت ، وأنا وحدى هالباش حد .. كان طنى مريم تمطيش عيال ،  
 كان جصدتى اسمى ما يتطيطش .. اسمى يجى على شهر الدنيا ..  
 مايجاش جصدتى الا الموت ..

أما حسين على ، فقد هام على وجهه فى الجبل ، وتبعته الخوجاية  
 باحثة عنه ، فلما وجدته وأرادت مواساته ، هجم عليها يكاد يفتك بها ،  
 وجعلها تفر مذعورة منه .

وكان حسين يجلس على حافة هضبة ، يطل منها على المهندس وبعض  
 الرجال وهم يشيدون أول مبنى فى القرية التوذجية .. كانوا رجالا  
 قليلين لا يزيدون عن سبعة أو ثمانية ، جاؤا من الجبل ليعملوا فى  
 البناء لقاء ثمانية قروش يقبضونها آخر اليوم ..

وكان العمدة فى ساعات النهار واقدا كمادته استعدادا لسهر الليل ،  
 وقد تسامى مرتين أو ثلاث ، بينه وبين نفسه عن غياب مريم ، ولكنه  
 على اختتامها بأن تكون ما زالت عند أبيها ، أو ربما ذهبت لتحضر له  
 بعض الماء من النهر ، الذى يقع على مسافة طويلة .. تحتاج لشي كثير ،  
 وتخيل مريم وهى جالسة على شاطئ النهر تفصل ثياب أبيها ، ثم قال  
 لنفسه ، انها بنت طيبة ولكنها عبيطة ، فأبوها مقعد يزحف بسديه  
 وسط التراب ، ولا فائدة من غسل ملابسه وتنظيفها ، لانها تنسخ  
 بعد أن يلبسها أبو حسين فى الحال ..

ولكن فى ساعة الغروب بدا القلق يداخل العمدة ، وازداد قلقه ،  
 عندما قابل بعض النسوة القادمات من النهر ، وعلم منهن أن مريم  
 لم تلمح مهن ..  
 وعندما رأى العمدة حسين على قادما يمدو نحوه ، أجملت عيشاء  
 وشعر بخفة حادة فى قلبه ..

ولم يصبر العمدة حتى يصله حسين على .. صاح فيه :

- مريم أين يا حسين ..  
 ورأى العمدة ملامح الانزعاج على وجه حسين ، وسمعه يسأله فى  
 حدة وانفعال :

- هى موش عندك يا عمدة ..

وزفر العمدة صيحة ألم وهو يقول :

- مريم راحت فى يا حسين ..

ووقف حسين واجما ، وأطرق برأسه ، حتى أمسك العمدة بكتفيه  
 وهزها فى شدة ، وبصعوبة نطق حسين قائلا :

- يا عمدة .. مات الرجال وتماوا مايا ع الكحت ..

ولم يقل العمدة شيئا لحسين .. كأنه فهم من كلماته كل شئ ..

لم يدرك شيئا مجددا ، ولكن القلق الملح الحاد كان أنصح من كل شئ ..

.. كان القلق يصرخ فى داخله .. أن كارثة قد وقعت ..

ولم يتردد الرجال لحظة فى اتباع أوامر العمدة .. تركوا مجلسهم  
 فى تلك الحلقة التى يتسامرون فيها ، وهم يقضون حاجتهم ، وبأدروا  
 بتلبية نداء العمدة صامتين .. انهم يعلمون دائما أن الجبل غدار ،  
 وأن الكحت ليس هينا ، وراه الموت ، ويكنى أن يسموا نداء ، حتى

ولم يجد أحد هؤلاء حسين على وهو يقضى اليوم كله ينتظر اليهم من مكانه المرتفع ، فذهب اليه ، وطلب منه أن يشترك معهم فى البناء ، فاستسلم له حسين بلا ممانعة وفى ذلك اليوم اكتشف انه لم يأكل لمدة ايام ، وأنه يتضور جوعا ، فاكل كل ما استطاع أن يحصل عليه من طعام ، ونام الى جانب البنائيات ، ورفض العودة الى الجبل ..

ومضت شهور وحسين على يبنى فى القرية النموذجية ، والرجال يتزايدون قادمين من الجبل وهم يرددون عن العمدة اقاصيص غريبة .. انه يتصحهم بالفرار من الجبل .. واذا رأى واحدا منهم زعم فيه ، وامره أن يخفى عن نظريه ، ولم يعد يطبق رؤية أحد ، ولا حديث له الا عن الموت الذى يترقبه ، والوحيدة التى يريد أن يعيش فيها ..

- تنى الخوجاية ، جاءت للعمدة ، لمردها ، وهددها بترك الجبل ، لولا أنها بكت وارتقت على قدميه ، متوسلة اليه أن يسمح لها بالبقاء ، والا يسبها بسوء ، فرضى ببقائها بشرط ألا تظهر أمامه ..

وكان حسين على يسمح هذه القصص ، وكأنه لا يمتنع منها شيء ، ويسمح الرجال وهم يتهايمون فى قلق على مصيرهم الذى ينتظرهم عندما يفرغون من بناء القرية ، وتضطرهم الحكومة الى النزول فيها ، فلا يتم لقلوبهم ، ولا يهتم بسبب انزعاجهم وخوفهم من المصير الذى يشترق بهم

قال أحد الرجال لحسين على ، يوم فرغوا من بناء دار العمدة وقبضوا يومئذهم :

- اليومية دى ح يعطوها لنا بعدما تخلص البنائيات ؟

فهن حسين رأسه قائلا :

- لا ..

وعاد الرجل يسأله :

- وح نعيش كيف يا حسين ؟

وسبكت حسين ولم يجب ..

ونار الرجل مثيرا فى وجه حسين على :

- ولجنا نوح يا حسين .. مع الاتارات والسواح .. لو انتجشنا

الجبل ح نموت كلتنا ..

وأجابه حسين فى هدوء : قاتل :

- نموت .. نموت .. احنا عايشين ليه ..

\*\*\*

ولكن حسين على أفاق من هدوئه القاتل فى أحد الايام .. ذهب ليقبض يومئذ .. الثانية قروش .. وما كاد يعصى القروش ويضعها فى جيبه ، حتى جاءه نفس الرجل الذى دعاه للعمل فى البنائيات وطلب منه قرشين من الثانية قروش ..

وطن حسين على أنه يريد اقراض القرشين منه ، ولكن الرجل قال لحسين فى وضوح لا يقبل التأويل ، ان بقاءه فى العمل مرتبط بالقرشين اللذين يجب أن يدفعهما يوما له ..

كان الرجل يتكلم فى حزم ، ويعلم أنه أصبح المسئول عن توريد الرجال للعمل ، وأن كل من فى الجبل يريدون الاشتراك فى البنائيات ، وأنه هو الذى سيختار من يعمل ، ولابد من دفع ثمن لهذا الاختيار .. انه لم يعد عاملا مثلهم .. انه المقاتل ..

ورفض حسين أن يدفع القرشين ، وترك العمل ، وذهب فى تلك الليلة الى الجبل لأول مرة ، ومضى الى لقاء العمدة

وقابله العمدة بالعناق والدموع ، وكان يضمه الى صدره بقوة ثم يسك بكثفة ويدفعه الى الوراء ، ويطلب النظر اليه من خلال دموعه ، ثم يضمه ثانية اليه قائلا له فى تأنيب واسى :

- تفوتنى كيف يا ولدى ..

وصمم العمدة على أن يسكن حسين معه ، ولم يدعه يذهب عن نظريه لحظة واحدة طوال الليل والنهار .. ولم يعد ينشأديه « يا حسين » .. كما اعتاد من قبل ، أصبح يناديه « يا ولدى » ..

وكانت لمودة حسين على الى الجبل ، أثرها بين الرجال ، فقد تناقلوا فيما بينهم قصة رفضه للعمل فى القرية النموذجية وامتناعه عن دفع الاتاة اليومية للمقاتل وتضخمت القصة وهى تنتقل من رجل الى رجل ، حتى راجت اشاعة فى الجبل تقول ان حسين هدد المقاتل بالقتل ، لانه خان أهله وعشيرته وباع نفسه لمهندس القرية ، وأصبح يسرق رزق العمال اليومى بتلك الاتاة التى قرضها عليهم ..

الرجال أنهم على حق في ظنهم أن حسين يبيت أمرا ..  
وأعاد الحادث للمعدة حمامه القديم فطرد المقاول وهو يصيح  
فيه :

- امشى يا راجل يا عديم الذمة .. والله لو شفتك هنا تانى لافوت  
عليك الرجالة تاكلك ..  
وبعد انصراف المقاول ، سمع حسين لأول مرة بعد موت أبيه  
واخته .. كلمة « الكحت » .. تتردد على مسعنه من جديد .

صاح أحد الرجال :

- يا رجاله .. احنا حملنا الكحت .. ومالناش غيره ..  
وأيد الجميع صيحة الرجل .. ما عدا المعدة ، وجم كانه سمع  
نبا مغرعا ، وما عدا حسين الذى انطلق مبتعدا عن الجماعة دون أن  
يقول كلمة واحدة ..

كانت كلمة « الكحت » تزلزل كيان حسين ، وتثير القشعريرة في  
نفسه ، ومع ذلك فهي تلاحقه كالمصير المحتوم ..

ماذا امام أهل الجبل غير الكحت ، انهم ما كادوا يعتمدون عن الجبل  
حتى اتجهوا الى مقاول يسرق منهم النقود ..  
وعنداك القرية الجديدة ، تنتظرهم بقبايها وكأنها قبور جديدة  
سيبدنون فيها احياء .. لا عمل لهم فيها ، ولا أرض يزرعونها ، ولا  
مصدر رزق يحسبون منه قوتهم ..

لإذ أن يبقوا في الجبل .. والبقاء في الجبل معناه استثمار  
الوقت ..

الوقت .. الخيال الوحيد .. الأمل الوحيد .. لكل من يسكن  
الجبل ..

واسرع حسين في مسيره ، وكأنه يجرى من « الكحت » الذى  
بماورده ، حتى كاد يضلطم « بالخوجاية » دون أن يراها ..

وقبل أن يفتح حسين فمه بالنحية للخوجاية ، كانت قد أمسكت  
بيده ، وجلبته معها في صمت ، ومضت به الى بيتها ذى الحديقة  
الصفيرة ..

واجلسته الخوجاية على مقعد وثير ، وقدمت له كوبا من الشاي ..  
وما كاد حسين يمسك بكوب الشاي ، حتى انحنت عليه الخوجاية ،

وتحول حسين الى بطل يرمقونه باعجاب ويلفنون من حوله ينتظرون  
منه كلمة يقولها في مشكلتهم التى تزداد حدة ، كلما مضت الايام ،  
وارتفعت مبان جديدة في القرية النموذجية ، تنبئ عن اقتراب موعد  
هبوط أهل الجبل الى تلك المبانى ..

واحتار حسين ، ولكن احدا منهم لم يدرك حيرة حسين ، كانوا جميعا  
يظنون قد بيت أمرا بينه وبين نفسه وأنه سيعلمتهم بهذا الامر في وقت  
قريب .. في الوقت المناسب ..

حتى المقاول ظن أن حسين يبيت أمرا ، وبلغته الاشاعات التى تقول  
أن حسين سيعتله ، فصدتها ، وخاف على حياته وخشى أن ينفض  
الرجال من حوله فقرر أن يبدأ بالهجوم ، وذهب الى المعدة  
بهذه ..

كان المعدة مع حسين ، عندما أقبل المقاول عليهما ، وتجمع الرجال  
ليشهدوا ماذا يدور في هذه المأبلة ..

قال المقاول للمعدة في تحد ظاهر :

- شوف يا عمدة .. انا جاي في كلمتين مختصرين .. الامر أمر  
الحكومة ، ولأزم تنزلوا تحت ، وتخلوا الجبل .. المهندس غرضه  
اليوم ، كل الرجالة تشتغل .. البنائيات دى كانت زرع وأنا مشيت  
فيه اسمع كلامي يا عمدة ، والله لولاى كان زمانكم محطوطين في  
الحديد .. انا حايش عنكم شر كبير ..

وأطرق المعدة قبل أن يجيب ، ولكن حسين لم ينتظر ، و  
هأنجا في وجه المقاول قائلا له :

- ببيت علينا راجل .. بتتريس فينا عملت مجاول و  
جروشات الرجالة ، رآخرتها جاي تخن الجبل .. عدى يا راجل  
جدامنا ، مالكش عندنا كلام .. اياك تطلع الجبل تانى .. وأنا اجطلد  
رجليك ..

فغفر المقاول ساخرا الى حسين وقال له :

- ايوك يا حسين هو الى اجطلد رجليه ..

ولم يكمل المقاول .. هجوم عليه حسين يريد أن يفتك به لولا تدخل  
الرجال ليفرقوا بينهما ..  
وفضل المقاول في الوصول الى غرضه لم ينجح تهديده ، بينما أيقن

وقبلته في قومه قبلة طويلة ساخنة ..  
 أطمعت بشفتيها التهنئين ، على شفتيه وطولت عنقه بلزاعبها .  
 وجلست على حجره ، وهو لا يدري كيف يتصرف والافكار تتسابق  
 في رأسه طوال القبلة التي لا تنتهي ..  
 كان حسين يقول لنفسه .. أنها صديقة أبي .. لقد كنت أحمل  
 اليها رسائله وأنا صبي صغير .. ان عمرها يساوي عمري مرتين ..  
 آه لو عرف الصدة بهذا .. هل أنخلص منها .. ان جـــــــــــــــــمها  
 بض .. وهي تسقراء .. وتقبلني بحرارة ورفقة .. أنها تريدني  
 مستكون عيدة لي .. هل أنزوجها .. شعرها أملس .. ثديها يملآن  
 ثني . خصرها يتلوى بين أصابعي .. سافوز بها .. أنها لي ..  
 وفاز بها ..

ورقدت الى جواره في سرير لم يتم على مثله في حياته ، وهو  
 يتحسس اغطية السرير بنفس القفصول واللحفة اللذين يتحسس  
 بهما جسدها ..  
 وشعر حسين براحة من نوع غريب ، سرى في جـــــــــــــــــده خدر  
 وكسل لم يتعرف عليهما من قبل .. واستسلم لنظرات « الخوجاية »  
 وعيناها تنتقلان وكأنهما تتحسسان جسده العاري .. عيناها ليست  
 فيهما قطرة من خجل ولا حياء ..  
 ومدت « الخوجاية » ذراعها تحت عنق حسين ، وداعبت أذنه  
 البعيدة بأناملها وهمت :

— موسى ح فغيب عنا ثاني يا حسين  
 وخرج من حسين صوت متحرج أجش :

— لا ..  
 والفتت صمًا بأذنه القريبة ، وقبلته وهي تردد مع كل قبلة ..  
 — يا حيك .. يا حيك .. يا حيك .. يا حسين ..  
 والثفت حسين بوجه اليها ، فأصبحت تستنشق بين يديه ..  
 وقبلته قائلة :

— أنت سيدى ..  
 وارتاح حسين لكلمة « سيدى » وفترت له هذه الكلمة ، ما حدث  
 بينه وبينها .. فهي ليست زوجته ، ولم يحبها أو يشتهيها يوما من

الأيام .. وما وقع بينهما كان مفاجئا ليس له تفسير ، الا ما تقوله  
 هي .. أنه سيدها ..  
 ونهضت من الفراش ، وغادرت الحجرة وسمع صوت الماء يتدفق  
 عليها ، ووقع اقدامها وهي تروح وتجيء .. ثم عادت اليه وقد ارتدت  
 ملابسها كاملة ، وقالت :

— أنت نعتت ..  
 فنفض بقميصه ، وأردت ملابسه وهو يسأل نفسه .. ماذا  
 سيقولون عنه في الجبل ، لو علموا بعلاقته بالخوجاية .. لابد أن تظل  
 هذه العلاقة في الخفاء ، لا يعلم بها أحد .. وأجته الى الباب يريد  
 الانصراف ، ولكنها أمسكت يده .. وألبت منه أن يجلس لتحدثه  
 في أمر هام :

— ح تعمل إيه يا حسين بعد ما رجعت لأهلك ..  
 فأجابها في غير اهتمام :

— ما امرئش ..  
 وأرتفع صوته في قوة :  
 — أنت عارف إيه اللي ح عمله ..  
 ونظر اليها حسين في ثبات وقال جادا :

— والله ما أعرف ..  
 .. واترقت منه ، ووضعت يدها على كتفه ، وهمت في تصميم ..  
 وصوتها كالفتح ..

— انت ح تكمل الكحت .. يا حسين  
 واشتدت ضربات قلبه .. وعادت اليه التشميرة التي أحس بها  
 عندما سمع الرجل يصيح .. يا رجاله احنا هبلنا الكحت ..  
 وما للناش غيره ..

الكحت يواجهه في كل خطوة بخطورها منذ عاد الى الجبل ، الجميع  
 يتحرقون الى الكحت ، لا يستطيعون التفكير في غير الكحت ، هو نفسه  
 حائلا لا يدري ماذا يصنع ، وسبب حيرته أنه لا يريد قبول الحال  
 ألوجيد الرابض امامه كأنه القدر .. الكحت ..  
 وهو حسين رأسه وقال في صوت مخفب بالألم :

— الكحت وراه الموت .. والرداب مشنوم .. وكفاية الصايب  
 التي جرت علينا ..



تصاحت فيه الخوجاية :

- انت غرضك دم ابرم واخترك يروح هدر ..

- كفاية اللي حصل ..

- ابوك كان غرضه الكحت يتم ..

- الله يرحمه

- انت خايف على نفسك يا حسين ..

وشحك حسين في الم .. ولم يجب

وسكتت الخوجاية .. وكفت عن الحاحها عليه ، وعندما هم

بالانصراف ، ودعته في برود ..

\*\*\*

وتردد حسين على بيت « الخوجاية » كل ليلة ، واصبح سييدا مطلقا على جسدتها وفي كل مرة كانت تهمس له بئك الكلمة التي يجيها ويرتاح لسماعها .. انت سيدى .. ولم تحاول ان تكرر مناقشتها مرة حول .. الكحت ..

ولكن لم يفض اكثر من اسبوعين منذ بدأت علاقتهما ، حتى قال لها حسين وهو يغادر بيتها في احدى الليالي ، انه قرر استئناف الكحت. فضمت الى صدرها ، وقبلته ، ولم تدعه يترك البيت ، ونام تلك الليلة في سريرها حتى الصباح ..

وعاد الرجال الى السرداب .. وارتفع صوت الماول فتفت الصخرة .. ولم يعد حسين يلعب الى الخوجاية في الليل ورغبت هي بابتعاده عنها .. كان الكحت اهم من كل شيء وهي تستطيع على كل حال ان تقابله خلسة في بعض الايام ساعة العصر لولا حسين ، الذي صمم على ان يقضى النهار بطوله واقفا في الكهف عنده مدخل السرداب ، وقد انتابه وهم لا يستطيع الخلاص منه ، انه لو غادر الكهف لحظة ، سيمود ليجد احد رجال الجبل او نساؤه ميتا داخل السرداب ، كانه يتوقع في شبه يقين ، تكرار مأساة ابيه واخيه وفي احدى الليالي ، وكان الليل قد تاخر ، واقترب الفجر ضرب حسين بموله في الصخر ، فاذا به يسمع زينا غريبا .. ودوى مع زنين الماول صوت الرجال :

- الناس بترن يا حسين .. لجينا الكثر .. الناس بترن ..

وتابتقت من سواعد الرجال قوى جبارة ترفع الماول وتهبط بها ، والرتين يزداد فيسجنهم بقوى اكثر واكثر .. وتوقف حسين على من الكحت نجاة ، والتي بموله ، وبلا يمسك بسواعد الرجال الثلاثة الذين شاركوه قاتلا لهم :

- كمان دجيتين والكتر ح يفتح بطولوا الكحت وروحوا جولوا للعمدة يا رجالة ..

وخرج رجلان من السرداب واتى واحد مع حسين ، ووجد الرجلان العمدة قريبا من الكهف ؛ يجلس مع بعض الرجال يستمعون لآغاني ابو ليلة .. كان العمدة مرحا تلك الليلة ، وقد استعاد حيويته منذ بدأ الكحت وابو ليلة لا يكتفى بالفناء ، فيقوم بالغاب مضحكة يشق جسمه القصير الى نصفين وقد نام على الارض ، ولف قدميه بعمامة ، ويدير معركة بين الرأس الرعوية المركبة في قدميه ، ورأسه الحقيقية ..

كان العمدة يهتف ضاحكا وهو يشير الى العمامة :

- والله يا رجالة ده الشيخ طلباوى بعته اضربه يا ابو ليلة .. اضربه الله يحبك ..

والنفت العمدة ، فاذا بالرجلين الخارجيين من اسرداب واقفين امامه .. ورفع العمدة هنيهة اليهما ، وفي راسه دوار لمرأهما .. كان على استعداد لان يسمع منهما اي شيء .. مصرع حسين .. انهيار الصخور .. موت اي أحد ..

ولكن الرجلين هجما عليه بقبلاذه وهما يرددان :

- الناس بترن يا عمدة .. لجينا الكثر





وقالت الاميرة  
لاصديقتها صاحبة :  
- مستعجل الان  
منظرا لمرئيتي .. ان  
الاميرة يترحم ان ياكل  
الهنيس ما رايتكم ؟

## الفصل السابع

كل الصلابة والحزم اللذين في الدنيا ، اجتماعا في وجه العميدة  
وارسما في ملامحه بمجرد سماعه بالتبلي ..

الرجلان يقولان له في فرح وانفعال مخموم ان « الفاس يترن » ..  
ولكن العميدة لا يستطيع ان يفرح او يتفعل في هذه اللحظة .. انها  
لحظة حاسمة ، وهو يعرف جيدا انها اخطر اللحظات ، اخطر من  
الكحت ، ومن انهيار الصخور اخطر من موت زوجته مريم وابيها  
ابو حسين اللذين دفعا حياتهما ثمننا من اجل هذه اللحظة ..

اي تهاون او تردد من العميدة الان ياتي فقدان لسيطرتة على اعصابه  
وعلى الرجال من حوله .. سيؤدي الى كارثة .. لو ضاعت  
هيبتة ، وضعت كلمته ، سيقبض الرجال ، وستدور المعركة بينهم  
على الكثر . معركة رهيبية ، قد لا ينجو منها احد .

وارتفع صوت العميدة قاطعا حادا ، فتوقف ابو ليلة عن العابه  
وانصت الرجال في رهبة الى العميدة وهو يقول لهم :  
- انا رايت يا رجاله احزسي الكثر .. ح اجمد على بابي ، محدش  
يجرب منه ، لحد ما اجيعكم كلنكم بعد صلاة الشبا الليلة الحاية  
ونفتح بابا الله ..

وصاح اكثر من واحد :

- نحرسه معاك يا عمدة ..

فنهروهم في غضب وقال محتدا :

- انا وحسين ح نحرسو وحدينا .. دا كثر حسين .. ونصبيكم  
منه حتخدوه بعيل الله ..

وانصرف العمدة ، يتبعه الرجلان اللذان اعلناه بالتبلي .. اما بقية  
الرجال ، فقد جمدوا مكانهم لا يجسرون على اللحاق به ولا ابتعد  
فلمهم العمدة ، انا انما لاتنقسم وانطلقوا الى الكهوف يوقظون الثامن

ويتشاورون في الحدث العظيم ..

وواصل العدة الى السرداب ، ودخله في الحال .. جثا على ركبته ، وحف على بطنه ، وشفى على قدميه ، حتى وصل الى نهايته ، ورأى حسين وزميله في انتظاره .. وما كاد يرى حسين ، حتى تذكر نجاة ، أن صوم زوجته ماتت في هذا المكان .. فالتفت قلبه ، واغتردت عينه بالدموع ، وظنها حسين دموع الفرح فاعطاه الفأس قائلا في حماس :

— اشرب يا عمدة .. الفأس يترن ..

وامسك العدة بالفأس ، وضرب به الصخر ، فاحدث رنينا يدل على وجود فراغ خلف الصخر ..

انه فراغ القبرة القرمزية التي تحوى الكنز ..

والتي العدة بالفأس ، وتندد ، ومسح على وجهه ، لم اقبل على حسين يعانقه في رفق وهو يردد في نغم حزين وقور :

— ربنا هوشك يا ولدي .. ربنا هوشك

وخرجوا من السرداب ، وهم يستندون العدة ، كان يترنح ويتعثر في كل خطوة وتسد خيالات قواه وهو يتحسس جوانب السرداب .. نفس الجوانب التي لمسها مريم قبل ان تموت ، هناك شيء في داخله يدق بجسده للصخر والتراب الذي يحمل رائحة مريم ويحتفظ بنسيمات آخر تلك حياتها . لقد ناه بعمل الحزن والفرح اللذين اجتماعا في هذا السرداب

وما كاد يصل الى مدخل السرداب ، حتى التى بجسده على الارض ، وأعلن انه سيعرق في هذا المكان ، ولن يتزحزح عنه ، حتى مودع فتح القبرة ..

والتفت العدة الى حسين وطلب منه أن يلعب الى الخوجاية في الحال ، وينقل اليها الخمر لتستمد في الليلة القادمة لاستلام الكنز ..

\*\*\*

وذهب حسين الى بيت الخوجاية مع تباشير الصباح وطرق بابها في عنف حتى فتحت له الباب ، وما كادت تراه حتى اختفى النحاس من عيشها ، وسألته في الزماج :

— ايه الي جرى يا حسين ..

فاجابها في هدوء :

— لجينا الكنز ..

وبدت اللهفة في صوتها ، واشتد انزعاجها . كانها سمعت نبيها فاجما . وصاحت فيه :

— نلحوا الحجرة يا حسين ؟

فهرز راسه محييا :

— لا .. ح تفتحها الليلة الجاية ..

ولم تكد تسمع اجابته ، حتى تركته واندفعت الى داخل البيت ، وعجب حسين لها ، كان يتوقع منها أن تقبله وتماتقه ولكنها انصرفت عنه كالجنونة ، وبمها الى حجرة نومها فوجدتها تخلع قميص نومها في مجلة وارتيك ، وترددى عباتها الصوف وتضع على رأسها العملة الزرقاء وفي لحظات كانت على استعداد للخروج

ونظرت الى حسين وقالت له في لهجة أمرة ..

— ما تملوش حاجة لحد ماجي .. أنا رايحة الشغل الشرقي وراجعة بعد جيمة ساعتين .. الايجيك هنا يا حسين

فسالها في دهشة :

— رايحة لين ..

ولم تنتظر حتى تجيب على سؤاله تجرت الى الخارج وهي تقول :

— رايحة ايجيب الفلوس .. الايجيك هنا بعد ساعتين ..

واندفعت في الطريق مهولة ..

وماد حسين الى كهفه ، فوجد العدة واقدا على ظهره مغمض العينين ، ففطنه نائما .. ولكنه ما كاد يجلس حتى سمع صوت العملة يساله :

— جلت لها ؟

والتفت حسين اليه ، فوجدته قد فتح عينيه يحدق بهما في سقف الكهف .. واجابه :

— ايوه ..

— وجالت ايه ؟

— راحت الشغل الشرقي تجيب الفلوس ..

وسكت العدة .. وظل يحدق في سقف الكهف ، وقد ظهر التعب واضحا في عينيه ..

وسأله حسين : لى :

- هى بتجيبا يس منن يا عمدة ؟

فحول الممس - ينيه عن السقف .. ونظر الى حسين طويلا ثم قال :

- من صاحبها .

وارتفع صوت - بين رعدا عنه متسائلا فى ضيق :

- صاحبها مين .

وشمر حسين ان نظرات عمدة تقتحمه وتكاد تخرق صدره ، فتكشف عن سره .. الخوجاية .. كانت نظراته عميقة ، محدقة ، فيها تفكير وتأمل ووف عن الرغبة فى الكلام ..

وأخيرا قال للعمدة :

- صاحبها تجار الأثارات .. جماعة فى الشط الشرجي

ولم يستطع حسين ان يمتع نفسه من مواصلة الحديث .. فعاد يسأل فى حدة :

- وهى تعرفهم منن .. يجوا مين دول ؟

واعتمد العمدة فى رقدته وجلس مترعا ، وبعث يده على الأرض .. ثم ثبت عينيه فى عيني حسين وقال له :

- خواجات شكلها ، كان واحد منهم يبيجى على بيتها كل ليلة وانوا بتكحتوا

وصرخ حسين وقد فقد السيطرة على نفسه :

- ماجلنيلش ليه يا عمدة ..

وضحك العمدة ساخرا فجأة .. كأنه وصل بنظراته العميقة التى يوجهها لحسين ، الى اكتشاف .. استطاع ان ينفذ الى مسدر حسين ، ويرى ما فى داخل قلبه ..

قال للعمدة فى سخرية مرة :

- يمكن جوزها .. يمكن يفتج معاها على الكنز .. هى حرة فى نفسها .. دى خوجاية مش واحدة من نسوانا

ثم وجه العمدة طمئنته الى حسين .. فجأة ..

قال له :

- أنا غرضى تتجوز يا حسين

وشمر حسين بالخجل ، وكأنه تمرى أمام العمدة ، وحز فى نفسه انه لم يناديه كما داته .. يا ولدى ..

وأيقن حسين .. ان العمدة عرف كل ما بينه وبين الخوجاية لا يدري كيف عرف .. ولكنه عرف ..

وشكر حسين للعمدة بينه وبين نفسه ، انه لم يمارحه .. الطريقة البقة المقتمة .. اكتفى بأن ينصحه بالزواج ..

وقال حسين فى ضعف واستسلام .. كأنه يدافع عن نفسه .. كأنه يبحث عن الخلاص :

- وأنا كمان غرضى انجوز يا عمدة ..

واختفت السخرية من صوت العمدة ومن نظراته ، وقال له :

- انا اخترت لك مترك يا ولدى ..

ونظر اليه حسين متسائلا .. وعيناه تمانان التسليم والقبول ..

وقال له العمدة بصوت وقور :

- اخت الشيخ طلباوى .. بنت حلال وغلبانة .. وغرضى ازيحها من اخوها ..

ومرت برأس حسين صور سريمة لاخت انشيخ طلباوى وهى تمر أمام الرجال فيحدثون عن مهارتها فى صنع أطباق القش

وهى تذهب باكية الى العمدة تشكره لشفيعتها الشيخ طلباوى كلما جاء من أسبوط .. واعجابه ناصرها على البقاء فى الجبل على الرغم من فقرها ، لانها ترفض ان تكون خادمة ثروجة شقيها

ووجد حسين نفسه يقول للعمدة :

- وأنجت يا عمدة ..

وقام العمدة واتجه الى حسين ، فقام بدوره ، وتماسكت أيديهما وقال العمدة :

- اجري الفاتحة معايا يا حسين ..

وقرا الاثنان الفاتحة ، وحسين لا يكاد يصدق انه اقدم على هذا الزواج تحت تأثير العمدة وحده ، لاشك ان الله دخلا كبيرا فى كل هذا الذى تم الآن :

وعاد للعمدة الى مكانه من باب السرداب ورتد موليا ظهره لحسين ، وكأنه لم يحدث شيء ..

وظل حسين ان المدة قد نام ، تجلس يراجع الافكار والمشاعر  
الكثيرة التي اختلطت في رأسه وصدره ، يمد حديثه انقصير مع  
المدة ..

احسن كانا قوى مجهولة تسيطر عليه وتطارده .. الكنز  
والخوجاية ، والمدة ونظراته العميقة ، وموافقته المفاجئة على  
الزواج ..

ان رأسه يدور بفروضه اضخم من تلك التي كان يسميها المألوف  
تضرب في الصخر داخل السرداب ، انه لا يدري ماذا سيحدث له ،  
والغرب من هذا : انه لا يدري ماذا حدث له ..

ها هو يوشك ان يحصل على الكنز .. كنز شق طريقه اليه مضطرا  
.. كنز يذكره بفاجعة اخته وابيه .. ايفرح ام يحزن بهذا الكنز ..  
.. كل ما يشعر به الان ، هو القلق والحيرة

نفس التلق والحيرة ، اللذين لازماه قبل الكحت وانناؤه ، انه لا يكاد  
يصدق ان ذهب الكنز ، ولا الذهب المخبوء في جميع كنوز هذا الجبل  
يستطيع ان يخرج من قلعه وحيرته ..

كان يريد المال ليأكل ويميش .. ولكن كيف يأكل ويميش بعد ان  
يحصل على المال .. انه لم يفكر في ذلك حتى الان .. كان مشغولا  
بالبحث عن المال ، حتى نسي كيف يتصرف عندما يحصل عليه ..

هل يترك نفسه لتلك القوى الخفية التي تحركه ، هل سيضطر  
الى الحياة بالمال ، كما كان مضطرا الى العجاسة بالفقر هل يترك  
الخوجاية ترسم له الطريق .. ولكنه كيد الخوجاية منذ لحظات  
منذ قرأ الفاتحة مع المدة ، متعامدا على الزواج باخت الشيخ  
طلبواي .. هل يترك أخت الشيخ طلبواي ترسم له الطريق ..

وقفزت الى مخيلة حسين ، صورة الاغنية النظيفة الزهيرة على  
سرير الخوجاية .. اقتحمت صوزتها تفكيره فجأة ، وكاد يشعر  
بملبسها الرقيق الناعم على جسده .. هذه الاغنية تطارده ايضا في  
خياله اينما ذهب ، وفي أي وقت .. وكان يضرب الصخر بفأسه داخل  
السرداب ، فيبرز امامه سرير الخوجاية واغليته ، وجسدها العاري الى  
جانبيه ، ويظل يضرب في هذه الصخور البارزة اسمائه .. كأنه يريد  
تفتيتها .. كأنه يريد القضاء على السرير والخوجاية ونفسه ، وكأنه

يسمع صوت طرقات الناس تردد في آذانه كلمات الخوجاية : انت  
سيدى .. انت سيدى .. وهكذا تقضي الساعات الضوالة يعمل في السرداب  
ويجب كيف لا يرى زملاؤه الرجال ، نفس الصورة التي يراها مرتسمة  
على الصخر ، وكيف لم يسموا نفس الكلمات التي تتردد مع طرقات  
الناس ..

حتى علاقته بالخوجاية ، لم تزده فرحا ولم تزده حزنا .. زادت  
قلقا وحيرة ..

واخيرا هذا الزواج المفاجيء .. زاده حيرة جديدة في حياته  
وشعر حسين برغبة في ان يقوم ويمسك بفأسه ويضرب في الصخر  
في اى مكان .. يذاه وهما مسكتان بالناس تضريان هما الشيء الوحيد  
الواضح في حياته ، وسيخيل امامه في الصخر .. صور الكنز  
والخوجاية وأخت الشيخ طلبواي ، ونحياته كلها .. وسيضرب في هذه  
الاشياء ، سيستمر يضرب ويضرب الى مالا نهاية ..

وقام حسين من جلسته

وفوجيء بصوت المدة يسأله :

- رايح فين يا ولدى ..

ونظر اليه حسين في ارتباك ، خيل اليه ان المدة كان يتجسس  
على ابتكاره لو عرف انه يظن ان لا اطلق لهذه الابتكار المنان ، وتركها  
تطوف برأسه ..

واجاب حسين في ارتباك .

- انا رايح للخوجاية يا عمدة ..

فبدت الدمشة على وجه المدة ، وانكا على كومه موشكا على  
الجلوس وسأله في حدة :

- تمل آه ..

فاجابه حسين وقد زاد ارتبائه :

- جالت لى استنظرها لما ترجع ..

وكان المدة قد اتم جلوسه ، وارتفع صوته :

- كيف تستنظرها .. فيه حاجة ؟

واذرك حسين ان المدة يشك في هذا اللقاء ، وقرر الا يذهب الى  
الخوجاية حتى يزول هذا الشك ..

وقال تروح انت يا غنمة .. انا تمبان وبغرض انمس شوية  
واطرق المدة براسه ، ثم رفعها وقال :  
- روح يا ولدى .. يكن عابزه حاجه ..

وذهب حسين الى بيت الخوجاية ، وكانت لم فات بعد من  
رحلتها الى الشاطيء الشرقى ، تجلس القرفصاء على غتبة الباب  
الداخلي ، بتفرس اثار الاقدام في المر الرمل بين باب الحديقة  
وباب البيت . هذا اثر اقدامه متدما جاء الآن .. وهذا اثر اقدامها  
.. وهنا اثر اقدام من .. انها اقدام مطبوعة ، وربما كانت لذلك  
الرجل الذي يقول المدة ، انه تردد على بيتها طوال ليلالى الكحت ..  
لماذا يجيء في الليل ، لاشك انه كان يردد معها على السرير ، وكانت  
تقول له في الآخر .. « انت سيدى » ..

وشعر حسين بالغيرة تعود .. انها لم تمانقه وتقبله كما كان يتوقع  
عسلما املها بيا الكثر .. جرت كالجنسوة الى ذلك الرجل من  
جنسها ، لتقبله وتمانقه ، هو سيدها : الحقيقى الذى يعطيها المال  
الذى تشتري به الكثر .. لقد خدمته وخاتنه ، والمدة يقول منها  
انها « حرة في نفسها » ولكنها ليست حرة معه ، سيضطرها الى  
الاعتراف بجرمها ، ويده قابضة على عنقها ، وسيطقي بها على الارض  
ونحطم راسها بقدميه ، وسيسفك دما ، ويراه يسيل على الارض ،  
وسيقضب يديه بالدم ، ويذهب الى المدة ، ويضع كفيه امام  
عينيه ، وعندئذ لن يجس بالارتياك امام نظراته ، وسيشمر بالخلاص  
ويتخذ نفسه من احد اسباب القلق والحيرة اللذين يشمر بهما بل  
هذا هو السبب الحقيقى لحيته وقلقه ..

وسمع حسين صوت خفيف ، كان شيئا يحرك الهواء وراى عباءة  
الخوجاية ثم رآها كلها امامه ، ومرت به دون ان تفوه بكلمة ،  
وفتحت الباب ودخلت ..

والتفت حسين اليها ، فراها تنظر اليه ، محمرة الوجه ، لاهثة  
الانفاس ، وأخيرا قالت له :

- ادخل .. جاعد عنك ليه ؟

ونفض حسين وتيمها ، ورآها تدس يدها في صدرها ، وتخرج  
كومة من النقود .. اوراقا مالية كثيرة ، نظر اليها في غياة ..

وتهدت الخوجاية وقالت :

- كل الفلوس دى علكاشك يا حسين ؟  
ولم يجد لكلامها معنى ، لانه لا يفهم معنى هذه الاوراق الكثيرة ،  
احس بان راسه كالعندوق الملق ، فوجم ، ولم يقل شيئا ..  
واقتربت منه الخوجاية ، واحاطته بلراعيها فجأة ، ومالت عليه  
تقبله ، وقبل ان تلمس شفتها شفتيه ، انتفض ودفعها بلراعه دفعة  
قوية ، فترنحت وسقطت على الارض امامه .. وصاحت في زعر  
تخالطه الدهشة :

حالك يا حسين .. ايه اللى بعمله ده ..  
وخبطا حسين تحوها ، ووضع قدمه فوق صدرها وقال بصوت  
خشن :

- ح اجنك ..

وكان صدرها يماو ويهبط رغم ثقل قدمه فوقها . وأبقت من  
نظراته اليها انه يعنى ما يقول ، فانكشفت في رقبتها ، وادارت راسها ،  
ودلفت وجهها في الارض حتى لا تراه ..

ولكزها حسين بقدمه قائلا في قوة :

- مين الراجل اللى كان يمدى عليكى كل ليلة ..  
ولم تقبل شيئا .. ازدادت اتكاشا . وجسمها كله ينتفض  
ويرتمش ..

وهوى حسين يديه على رقبتها وكشفها .. وجذبها اليه بقوة ،  
فارتفعت مع يديه صارخة في الهواء .. ورأى حمرة وجهها تتحول  
الى زرقاة ، وملامحها مختلطة مشوهة ، عيناها جاحظتان .. وشفتها  
مقلصتان ، واسنانها تطلك .. وهى تحاول ان تقول كلاما غير مفهوم  
.. بالفرنسية ..

ونظر حسين اليها في دهشة ، كأنها امرأة اخرى غير تلك التى عرفها  
وبلأت الدموع الجادة في عينيها تنهمر وتسيل على خديها ، واستمرت  
في الكلام بتلك اللغة الغريبة التى لا يفهمها .. كانت تنطق بها مولولة  
.. متوسلة ، وصوتها يرتفع شيئا فشيئا ، فيقيم بينها وبين حسين  
حاجزا من الغربة والنفور ..

ورفع حسين يده عنها واستدار صامتا . وانجه الى الباب ليخرج  
منه ..

ولكنها جرت خلفه وثبتت به ..

وارتبك حسين .. ويديه قابضتان عليها تربدان الفتك بها ،  
يختلف تماما عن شعوره الآن ، ويدها قابضتان على ذراعه متشبثان  
به ..

كان وجهها شاحبا مستطيلا، كان شيئا يمتد فيه ، ولون وجنتها  
قد تغير من جديد ، كان محمرا ، ثم تحول الى زرقه ، وها هو اخيرا  
مطلعي عليه الاصرار . وكانت تبدو ضعيفة .. ضعيفة جدا ، كانها  
تثبت به حتى لا تنهار وتسقط على الأرض ..

ولكن ضعفتا كان قويا .. عينها وجسدها وبديها وانفاسها .. كل  
شيء ضعيف فيها ، يتشبث به في قوة ، وكأنه يقول ان اتركك لانك لو  
كنتي ساموت ، وانا لا اريد الموت ..

ولم يفهم حسين ما يحدث له ، اراد ان يتركها ويفادر بيتها حتى يقتلها ، فارادت هي ان يبقى حتى لا تموت ..

وعاوده الشعور الذى بلازمه ، بأنه يعيش ويتصرف فى حياته  
مضطرا .. هناك قوة تحركه ، قوة أكبر منه ، أنه يتألمها وهي تجذب  
ه إلى داخل البيت ، فلا يدري لماذا امتنع لجانة عن قتلها ، ولا يدري  
لماذا لا يحاول ما اعتزمه من جديد

ماذا جرى له ؟

لقد اعتاد كلما عصفت الحيرة برأسه ، أن يلجأ الى يديه ، يضرب  
بهما وهما مسكتان بالفأس في سخر الجبل ، أو يعمل بهما في البنائات  
.. ولا عدته الغيرة واحترافه في أمر هذه المرأة .. لجأ الى يديه يريد  
ما القضاء عليها ، ولكن يده مشلولتان ..

هل شلت يداه عنها ، لانه احس انها اجنبية غريبة عنه . . كانه  
يكن يعرف ذلك من قبل ؟

ودوى صراخ غير مسموع فى راس حنين ، انت لم تقتلها لانك  
ترضى أن تراها حية ..

نعم .. انه على يقين الآن انه لا يريد أن يراها بحثة .. ان منظر  
بحث بالنسبة له ، منظر مقدس .. نسل ..

جثة مريم .. جثة ابيه .. انه يتذكر منظر الاشلاء والدماء  
شعر بالاحترام والرغبة والحزن والالم والخشوع ..

انه لا يرضى ان يحول الخوفاة الى مريم .. ولا يمكن ان تكون  
الخوفاة مريم ..

الحاجة مريم ..  
 ضاعت منك يدك يا حسين ، وهما مازالتا متدليان من كنفيك ..  
 لم تعد لديك يدان ، انهما ميتوتان كساقى ابيك .. لم تعد تلك سوي  
 تلك الرأس التي تعن بالحيرة والاحزان والخيبة .. يدك لا تستطيعان  
 اقتل ، ولا تستطيعان الاسك تلك الكومة من الاوراق المالية ..  
 يدك لا تستطيعان الحصول على الكنز .. الكنز الذي حصل عليه ..  
 جنة مريم .. وجنة ابيه .. وجنة الخوفاة كما كان يريد .. هل  
 .. .. الحق الذي حصل عليه ؟

هكذا هو الكثر الحقيقى الذى حصل عليه ،  
 وإفاق حسين من الدوامة التى فى رأسه ليجد نفسه جالسا على  
 المقعد الوترى الذى اعتاد الجلوس عليه ، والخوابة راحة أمامه على  
 كتفها ، وهـ تقول له فى صوت مسكين :

— خذ الفلوس يا حسين ، وخذ الكنز بس سببني اعيش معاكم

هنا ..  
وحاول حسين عبنا ان يقول لها شيئا .. بحث عن اى كلام يخرج  
من فمه فلم يجد ..

من فقه فلم يجد ..  
 واستأنفت الخوجاية الكلام ، كانها تعرف ، انه عاجز عن الحديث  
 .. قالت في صوت متهدج :  
 - انا ميت جويزي وأهلي وبلدي .. وجئت لنفسي انتم اهلي

.. قالت فی صوت متہلج :  
- انا سبت جوڑی واهلی وبلدی .. وچلت لنفسی انتم اہلی

يا حسين ۰۰  
فقللها صوت مفاجئ من حسين : ما، القصب والانكار صوت  
كانه انفجار :

كانه انفجار :  
- لو كنت من نسوانا . كنت جننك . انت خوجاية

فصرخت في ألم :  
- اجتلبني يا حسين . ومانجلس على خوجاية

.. انه يكره السقف والجدران والتعد وهذه المائدة الكومة فوقها  
النقود وذلك السرير في الحجرة الاخرى .. انه يريد ان يشفى مما في  
رأسه .. يريد ان يعود الى الجبل ..

وتركته الخوجاية دون ان تثبت به يديها .. اكتفت بملاحقته  
بصوتها قائلة :

انا موش ح اشوف حد فيرك يا حسين .. ح اتمد هنا في داري  
.. مش ح اعدى الشط .. روح أنت اتفح معاهم في البر الشرقي ،  
وعندك القلوس اهي

ومضى حسين الى الباب ، دون ان يلتفت اليها فصاحت فيه يائسة :  
- يا حسين .. جوللى اعمل ايه ؟

فالتفت اليها وقال ساخرا :

- اعملى اللى فرضك فيه يا خوجايه .. اكلمى مع عمدتنا . انا  
مالياش مماكى كلام ..



## الفصل الثامن

وما كاد حسين يقترب من كهفه ، حتى لمح اخت الشيخ طلباوى  
واقفة امام باب الكهف تنظر في اتجاهه ، لم تسرع بالدخول لتخرج  
من جديد وتظل عليه بزأسها ، لم تختفى داخل الكهف  
واسرع حسين في خطاه ، ولكنه قبل ان يدخل الكهف ، رأى الفتاة  
تمرق الى الخارج ، وتعدو بعيدا ، بعد ان ارسلت اليه نظرة خاطفة  
اخيرة ..

وخيل الى حسين ، انها تفر منه ، لامن الخجل ، انما من بشاعته ،  
وتبعها بعينيها وهو يتساءل في قرارة نفسه هل يصلح لها زوجا بعد  
كل الذى حدث  
واستقبله المدة ببشاشة ، كان جالسا مكانه امام مدخل السرداب ،  
يحتسب الشاي ، وعلى شفطيه ابتسامة عريضة  
وصاح المدة في مزح :

- مريك كانت بتخدم على يا ولدى .. ح تنجبن م الفرح موش  
مضدجه انهاح تنجوز زين ذيك ..

وارتجف حسين لمسمع كلمة « زين » .. ان المدة يسخر من  
كل شيء . فليسخر كما يشاء ، كل ما يريده الان هو ان يرقد داخل  
كهفه ، ان يحبس نفسه هنا ، لا يفكر في شيء .. ولا يصنع اى شيء  
.. سيترى هناك في الركن البعيد .. وينام ..

ولاحظ المدة رجوع حسين ، فسأله في هدوء :

- الخوجاية جالت لك ايه ؟

فاجابه حسين وهو يرقد في الركن الذى اختاره :

- جابت القلوس ..

وسأل المدة في لهفة :

- كام ..



واجابه حسين وهو يتمدد واقفا على ظهره :

- ما اعرفش .. فلوس كثير يا عمدة ..

والح عمدة سائل في لهفة :

- وجلت لها ايه ؟

وزفر حسين الهواء من رثيته وقال :

- جلت لها ما لباس معاكى كلام يا خوجاية .. الكلام مع عمدتنا ..

واطرق العمدة برهة ثم قال في تردد :

- مالك يا ولدى ..

واجابه حسين في صوت خفيض :

- ولا حاجة يا عمدة .. غرضي انسى شوية

فقال العمدة في صوت حنون :

- انسى يا ولدى .. الليلة جدامنا شغل كثير ..

واقطع الكلام بينهما ، ولم يعد يتردد في الكهف سوى صوت

انفاسهما .. تقطعه رشقات المدة للشاي ..

واذا حسين عيشه الى صخور الكهف وتبلدت افكاره ولم يعد

يدري اهو قائم ام يفتان ؟

\*\*\*

وانتبه حسين من جموده ، على يد تحركه ، واصوات ورجال

عديدين يملئون الكهف ، وصوت العمدة يهتد بالاوامر

- كل واحد يروح لخاله ويجعد في بيته ، وسيبوني انا وحسين

والرجالة اللي اتجننا معاهم لوحدينا .. واياك اشرف جنس راجل

يتحرك من مطرحة لقاية ما نخبركم ان احنا لاجينا الكثر

ولفت حسين حوله في ذهول ، كانه يحلم .. كان الليل قد اقتبل

وساعة فتح الكثر قد دنت ، والمدة ملء بالحوية والنشاط ،

وصخور الكهف نفسه تفسج بانفاس الرجال وهمهمتهم .. وهو وحده

يرقد خاملا متهاكيا كالرقيق ..

وصاح العمدة في حسين :

- انهض يا ولدى .. انت نمت كثير

فاتنفض حسين واقفا ، كان صوت العمدة هو الذي يحركه ورأى

الرجال يغادرون الكهف صامتين ، وبقي العمدة ورجلان آخران يسبك

احدهما بمسحاح ويمسك الثاني بالفئوس

وتناول العمدة المسحاح من يد الرجل قائلا :

- وجف جدامك واحرسنا .. متخليش احد يجرب ..

ثم التفت الى الرجل الآخر وقال له :

- وانت كمان اجف وياه ..

وتقدم الرجل المسك بالفئوس الى حسين وسلمها له ، فامسك

بها ، وهو ينظر اليها نظرات جبانة ، كانه لا يفهم الغرض منها ، ولاباذا

سلمت اليه ..

ورن صوت العمدة في الكهف :

- هم بينا يا حسين ..

ولم ينتظر العمدة حسين ، تقدم الى مدخل السرداب ماذا يده

المسكة بالمسحاح وتبعه حسين كالنوم ..

وخيل لحسين انه يدخل السرداب لأول مرة في حياته ، كانت

عيناه تقمان على جوانبه في دهشة ، وينظر الى ظهر العمدة الذي

يتقدمه ، وهو يتسائل بينه وبين نفسه .. اهلا هو المدة حقا ؟

وينظر الى الصباح في يد العمدة فيبهز الضوء عينيه ، فيظل يحرق

فيه ، وهو لا يدري انه ضوء او مصباح

كان الجمود في عقله اشد من الجمود في جسده ، والبلادة في راسه

اخطر منها في حركاته ، وعندما وصلا الى ذلك الجزء من السرداب ،

الذي يجيب ان يرحف فيه بيديه ورجليه ، وقف مبهوتا لا يقوى على

الانحناء ، حتى سمع صوت العمدة يشده اليه :

- جرب يا ولدى .. انت فين ؟

فجثا على ركبتيه ، وزحف الى الامام حتى لحق بالعمدة الذي

تمهل في انتظاره ..

وبينما هو يرحف على بطنه في جزء آخر من السرداب ، بذل جهدا

كبيرا ليتذكر شيئا نسيه ، احس انه يتقصه ذلك الشيء .. ما هو ؟

.. انه لا يدري كانت راسه خاوية فارغة تماما ، ليس فيها فكرة

واحدة ، ولا صورة واحدة .. الشيء الوحيد الذي يتحرك في راسه ،

هو هذا الوجه الذي يلا عينيه .. ذلك الوجه الذي يسبك به العمدة

اثناء تقليمه الى الداخل ..

ولما عجز حسين عن التفكير ، لجأ الى حواسه يراقبها . تتبسع

صوت يذنه المسكين بالفئوس ترتطمان بأرض السرداب ، وتتبع

صوت انفاسه ، وتبع صوت المدة وهو يزحف تشبها امامه ..  
وتحس التراب في يديه ، وتحس على جبينه وفي خياشيمه ، كان  
غلثا التراب هو كل حياته .. حياته التي نسي ماضيها ، ونسى  
مستقبلها ..

وهز حسين رأسه ، وقال لنفسه بصوت مسنوع :  
- أنا له نمان ..

وسمعه المدة ، ولكنه لم يتبين كلامه فقال له :  
- يتجول ايه يا ولدى ؟

فرد حسين في جيود :  
- أنا له نمان

وضحك المدة قائلا :

- اسحق امان .. نوح لنفسك .. احنا داخلين دلوقت على  
المساخيط ..

ولم يقل حسين شيئا ، واصل زحفه وهو يفكر جاهدا ، فبين هم  
المساخيط ، ولم يستطع التفكير ، فظلت الكلمة تتردد في ذهنه ..  
المساخيط .. المساخيط .. المساخيط .. حتى سمع المدة يقول  
له :

- جوم اجف يا حسين .. انت مش شايف ..

ووقف حسين .. كان قد وصل الى جزء مرتفع من السرداب  
يستطيع ان يمشى فيه على قدميه ..

وما كاد يتقدم يضع خطوات ، حتى رأى امامه سدا من الصخر  
.. انه نهاية السرداب ..

وتبين حسين في تلك اللحظة الخاطفة كل شيء .. وقمت عليه  
كل ذكرياته الفاسدة منه ، يتلقا الكليل .. انهارت عليه كصخرة  
هائلة مغطاة .. رأى حسين المدة ، وابقى لاول مرة منذ دخل  
السرداب ، انه المدة ، ورأى الصباح في يده ، وعرف انه مصباح ،  
ورأى نهاية السرداب ، وادرك المهمة التي جاء من اجلها .. وتذكر  
مرنم واباه والخوجاية واخت الشيخ طياوي والبنات والتساؤل  
والهندس ، تذكر صباه البعيد ونداءات آية اليه ، والسواح .. لم  
يبق شيء لم يتذكره ولم يحتدم في رأسه ..

وصرخ حسين وقد وقعت النفوس من يديه :

- ابدىا عطلائه يا مدة .. متوجفة ..

فتنظر المدة اليه في حيرة وعدم فهم وساله في النزاع :

- جرى ايه لايديك يا ولدى ..

فأجابه حسين في ألم ، ويده متديلتان الى جانبه :

- متوجفة .. يتنفز ..

فتقدم المدة منه وقرب مصباحه وتحس يديه وهو يقول :

- يتنفز ليه .. ايه اللي صابها ..

- ما اعرفش ..

ونظر المدة الى حسين نظرة حادة . وقال له في حزم :

- عار عليك يا ولدى تخاف من المساخيط لم رفع صوته بلهجة أمرة :

- اضرب في الحجر .. ولا اضرب فيك .. والله اجنك ولا يجول

الرجال ولاي حسين جبان ..

وانحنى المدة والتفت احد النفوس ووضعه في يد حسين ودفع

له الى الصخر صارخا :

- اضرب .. اضرب ..

وامسك المدة بفأس آخر ، ورفعه مهددا به حسين

وضاقت فيها حسين ، وزم شغفيه ، وكم انفاسه ، لم رفع يده  
بالفأس ، مطلقا صيحة مغزعة ، وهجم على الصخر كأنه مخلوق بشري  
يريد سحق دمه ..

واستمر حسين يضرب في الصخر وهو ينادى اباه واخته ، واستمر  
المدة معه وظلت ناسهما ترتفعان وتنخفضان حتى تقلت فأس  
حسين داخل الصخر ، وهوت منه قطعة من الفراغ خلفه ، واستمر  
يفتتان الصخر حتى تنحنا نفرة تكفى لان يمد رأس واحد منهما  
والمصباح في داخلها ودفع حسين برأسه داخل النفرة ، بينما ادخل  
المدة يده بالمصباح ، ووقف خلف حسين ينتظر ما سيحدثه بانه  
راه ..

ووجم حسين ، لم ينبس بكلمة ، ولم يخرج رأسه من النفرة ولم  
يتأثر بوخزات المدة له في ظهره ، ولا بصيحاته اللهوفة « لجيت  
الكنز يا حسين » وحاول المدة ان يخرج يده المدودة بالمصباح ..

فاضطرب حسين ان يتراجع الى الوراء . وهجم المدة يريد ان يجذب حسين بكل قواه ولكنه لم يستطع . فضرب وجهه بالصباح . فاضطر ان يتراجع الى الوراء . وهجم المدة على الثغرة ونفذ فيها براسه ، واطل داخلها . .

وسقط مصباح المدة من يده ، ففرق الاثنان في ظلام دامس ، وصاح المدة ورأسه ما زالت داخل الثغرة ، فلم يسمع حسين كلامه ، وظل المدة يصرخ ، وقد فقد صوابه ، حتى اسكت به يدا حسين وجلبته بشدة لتنجيه من مكانه ، وعاد حسين يخلق في ظلام الثغرة ، وهو يصرخ بدوره باكيا :

— يا بوى .. يا بوى .. مريم .. مريم .. فبين انتو واستمر حسين يشادى إياه وأخته زمنا لا يعرف مداه ، حتى يح صوته ، وتحرقت عيناه ، ولققت رأسه ، فهوى على الأرض وساد السرداب صمت بغيض ، حتى انفاسهما لم تكن مسموعة ، ولبنا الاثنان على هذه الحال فترة كأنها الدهر . .

\*\*\*

سكت حسين على عندما وصل الى هذا الحد من حكايته التي يرويها لى ، كان من الصعب عليه ان يواصل الكلام ، وقد غلبه الانفعال ، وكان من العسير على ان اصبر على بقية حكايته ، وقد غلبني الانفعال ايضا . . وأوشكت ان استحثه ليقول لى المزيد نولا اطرافه رأسه ، وعلامات الاجهاد والحزن الواضحة على سمات وجهه ، لا يخفيها ظلام الليل المحدث بنا . .

كان لابد ان احترم صوته ، وحولت عيني في ضيق الى كهوف الجبل ، النيران التي كنت اراها من بعد قد خبت ، وابو ليله قد كف عن أغانيه ، ونظرت الى ساعتى فلم ابين عقاربها فاشعلت عود نقاب ، وعلى ناره ، علمت اننا قاربنا الفجر . .

لقد تأخرت طويلا في الجبل ، والمهندسين ينتظرونى ، وزبنا ظن اننى قتلنا هنا ، فأبلغ البوليس . . يجب ان اعود اليه فورا ، قبل ان يأتى البوليس للبحث عنى ، ماذا يكون موقفى وأنا اغادر الجبل في حراسة البوليس ، ستتهار كل المصادقات التي اقمتها بينى وبينهم . . سترتفع

حواجز سميكة من الكراهية بيننا ، سينظرون الى كرجل خدمهم . . لن يفهموا ابدا اننى غير مسئول عن حضور البوليس ، كل ما سيفهمونه انى خائن ضحك عليهم ومرف اسراهم ، ثم مضى مع البوليس ، ليفشى هذه الاسرار اليه . .

ولكنى لا استطيع ان اعود الآن ، قبل ان أعرف الحكاية . انها لم هد مجرد حكاية ، انها حياة كاملة عشتها ، وانقطاعها على هذا النحو . . موت لهذه الحياة ، موت لجزء من مشاعرى التى ولدت وجلقت واكتسبتها في هذا الجبل . .

وقدمت لحسين على سيجارة ، وسألته في قلبي :  
— شفتم ايه يا حسين . . شفتم الكثر ؟

فلم يرد على ، وحسول بصره بعيدا عنى واحسنت انه يريد ان يتكلم ، ولكن ماسيقوله ثقيل على نفسه ، متجندا في صدره . واشتد قلقي ، وخيل الى انى عرفت ماحدث ، لسألته في تردد :  
— لتيتو المقبرة مسروقة ؟

وهمس حسين في اسمى ، وكأنه خجلان :

— لجينا بير . .

— بير . . ازاي . .

— بير غويط واصل مالوش جرار . .

وشعرت كائى اسقط في هذا البئر بلا قرار ، اذن فهذه هى نهاية كل هذه المتاعب والاحزان . لا شئ سوى قاع لاقرار له . . لانه . .

وتكشفت لى حقيقة الموقف ، ان وصولهم الى البئر اسوأ ، من وصولهم الى مقبرة مسروقة ، ان البئر تعنى ان المقبرة مازالت موجودة ، بكل ما فيها من كنوز ، انها حتما هناك في بطن الجبل ، لكن لابد لهم ان يبدؤوا « الكحت » من مكان اخر . . من الاتجاه المقابل . . حيث لا يقف البئر فأغرا فاه المريض يتلقف كل من يريد ان يخطو الى الكثر . .

كحت جديد ، وسرداب جديد ، وضحايا جدد ، ودم مسفوك جديد . . هذا هو ما يعتيه البئر . . ان اى انسان لا يستطيع ان يتحمل كل هذا الشقاء في حياته مرتين . . انه موقف جنونى ، كثر موجود

فيه الامل الوحيد في الحياة ، ومقيات قائمة فيها كل الياس من الحياة ، كيف يتحمل حسين هذا الموقف . لقد بدأ يروى لى جكايته ، وهو يضحك كأنه لا يحمل هما .. قابضى شامخا مترفعا كالجبل .. انه الجبل فعلا ، لا قيمة لكل هذه المناظر الطبيعية التى تحيط بى .. الجبل وكهوفه ، الصحراء ومالها ، السماء ونجومها .. كل هذه الطبيعة لا قيمة لها بغير حسين .. انه أقوى منها واشد احتمالا منها ، وأجمل منها ..

وتسبت لفتى على العودة ، واحتقرت قلقى وخوفى من ابلاغ المهندس للبوليس .. ان البوليس لا يستطيع أن يأتى الآن الى الجبل ، لو أراد الحضور فسينتظر حتى الصباح .. ولو جاء البوليس فلن يأتى للبحث عنى وحمايتى ، بل سيأتى للقبض على واخراجى من الجبل ، فانا لا اريد العودة الى القرية النموذجية .. المهندس أصبح شيئا تافها لا طعم له ، ومحاولاته الساذجة « لقرية » أهل الجبل .. القاهرة تحولت فى عيني الى كتلة ضخمة من النخامة ، ليس فيها رجال ، وليس فيها مشكلات .. فيها ضجة حققاء وصخب ابله .. هذه هى القاهرة .. وإدارة التحقيقات .. حيث يجلس الموظفون على المكاتب .. وإمامهم ملفات ضخمة فيها أوراق كثيرة يقلبونها ويؤشرون عليها .. ما معنى ما يصنمونه فى ادارة التحقيقات .. كل ما يصفونه أن مثل هذا الرجل الذى يجلس أمامى .. حرامى .. حسين على حرامى .. ما أشد غياهم وبلادتهم .. كأنهم يقولون .. الجبل حرامى .. هل هناك غير الجاني يتهمون الجبل بالسرقة ..

وسمعت حسين يقول لى فجأة :

— انت راجل متعلم ومتنور . جولى أعمل ايه ؟

كان العلم الذى درسته فى الجامعة ، سيفيده فى حل مشكلته .. مسكين ، إنه يجهل أن العلم ، هو الذى أنقضى الى هذا العلاج الاحق للمشكلة .. بناء قرية نموذجية ، يمشون فيها بغير عمل كأن الرزق سيسقط عليهم من السماء .. هذا هو ما اقترحه العلم ، بيوت نظيفة فيها مراحيض و سيفونات ، وسكان فقراء لا يملكون قرشاً يشترون به طعامهم ولا يملكون طروقا تنتج لهم العمل ..

العلم قد أصابه الخوف والهذيان عندما مس مشكلتهم ورغم ذلك

ما زال حسين يتعامل عن العلم والنور ، وهل هو قادر على تقديم العلاج لهذه المأساة ..

وصحبت فى حسين يالسا :

— بش عارف أقول لك ايه يا حسين فابتسم ابتسامة طيبة لاهمة وقال :

— أنت مبتجولش زى غيرك انزلوا البنابات ..

فقلت فى شبه اعتذار :

— كنت باقول كده الاول .. لكن دلوقت أقول لسيكم بصراحة

واتنزلوش .. وجدتنى اندفع متورطا معه ، فى تحدى مشروع الحكومة ، ببساطة متناهية

وهز حسين رأسه واضيا ثم قال :

— تعرف أنت مين الذى عمل الحريجة فى الشونة ؟

وقبل أن أساله من الذى أشعل الحريق ، سمعته يعترف

— أنا

ولوح بيديه وقد رفع صوته :

— خرجتها وح اخرجها كان وكمان

انه يدل باعترااف كامل عن جرائمه .. متجاهلا تماما صفتى كمتحق ، وكرجل يقتضيه واجبه ، وأمانته فى عمله أن يبلغ فى الحال عن هذه الجرائم ..

ولكنى لم أثار مطلقا ، بالآزمة التى تدفعنى إليها اعترافات حسين . كنت قد نسيت صفتى كمتحق ، ولقدت مسنى وطيلتى ولم أعد أنهم مدلولها فى هذا المكان ..

لم أعد قادرا على تصور أفعال حسين على أنها جرائم يعاقب عليها القانون ..

ولو فرض انى تفاضيت تماما عن قسسى ، ووعدى لاهل الجبل بالاخونهم .. أو أبوح بشئ يضرهم ، ولو فرض انى تمسكت بواجبى كمتحق ، وأبلفت عن حسين على ، وكتبت اعترافات كاملة فى تقريرى ، ماذا سيحدث بعد ذلك ؟

كل ما سيحدث ، هو أن تزداد مصائب حسين ، مصيبة أخرى

جديدة ، مهيبة تأتيه من حيث لا يتوقع ، سيحقق معه عديقي وكيل  
 نياية الاقصر ، وسيدون محضر تحقيق على هذا النحو  
 س - انت منهم يكحت الجبل وسرقة الابار ..  
 ج - انا كحت .. صبح .. لكن انا موش حرامى ..  
 س - يعنى انت معترف بالكحت ..  
 ج - ايوه ..

وسيقفل وكيل النياية المحضر عند هذا الحد ، وقد تملكه الظفر  
 والارياح ، لحصوله على اعتراف مريح ، وسيبقى حسين بعد ذلك  
 حياته فى السجن ..

هكذا سيلخص محضر تحقيق النياية . حياة حسين على ، وحياة  
 اهل الجبل جنينا ، ومشاكلهم كلها ، فى سؤالين وجوابين واعتراف  
 ، ثم سجن ..

انه ظلم .. ظلم بشع لا يمكن ان اساعد عليه ، حتى ولو اتهمت  
 باى غير امين فى عمل .. اتستر على الجرائم ، واخالف القانون  
 الذى يجب على ان اطيقه

وحسين على يعرف جيدا ، انى لن اظلمه .. لذلك رضى ان يروح  
 لى بسر .. كاملا .. انه يريد ان يروى لى حياته ، لانه حائريانس ،  
 يريد خلا عاجلا لمشكلة حياته .. حتى القرباء عنه ، مثل يطلب منهم  
 ان يساعده ، وليس له سوى شرط واحد ان يمنحوه قفتم ، ولا  
 يطلخوا على جراحه الدفينة ، ليسخروا منها ، او يزيدها طعنا  
 وتجريحا ..

وفجأة وقف حسين على قدميه ، وحلق بعيدا فى الظلام .. وتيمت  
 اتجاه نظراته .. فرأيت شنبعا يسير عن بعد .. وكان سواد الليل  
 قد بدأ يتحول الى زرقة داكنة عند الافق الذى يتجه اليه الشبح ..

وسالت حسين فى صوت خفيض :

- مين ده يا حسين ..

- فاجابنى فى بطة ..

- الخوجاية ..

- رايحة فين ؟

- رايحة تصل ..

وسأله فى عجب :

- من مسلة ..

فاجابنى حسيب ، وهو ماثر يتابعه بنظره .. وشبهها يكاد  
 يخفى فى الامق :

- لا .. دى غ تصل جبال للفراعة

- يتصل للفراعة .. اذى ..

فاستدار الى حسين وقال على شففيه إنسامة :

- تعال ميايا ..

ومد حسين يده الى ، ليساعدنى على النهوض ، وتلفت باحشا عن  
 الحارة فلم اجدها ، وفهم حسين انى ابحث عنها فقال :

- الحارة مشيت من بدوى ..

وحسبى من بدوى يرفق ، ومشى مسرعا ، وانا امرول وراه حتى  
 وصلنا الى طريق بين هضبتين عاليتين ، اجتزاه حتى منتصفه ، ثم  
 وقفنا عند منحدر متفرع من الطريق ، يؤدى الى فوهة كبيرة داخل  
 الهضبة ..

وسرنا مع المنحدر فى حذر ، ودخلنا الفوهة الصخرية ، وهبطنا  
 منحدر آخر ، ووقف حسين لجة ، وحسب لى اذنى مشيرا الى ان  
 ادلف فى سرداب على يعنى قائلا :

- ادخل طل عليها ..

وتقدمت داخل السرداب ، حتى وجدت بابا صغيرا ، لمحت داخله  
 بهوا كبيرا مليئا بالنقوش القرمزية .. انه احد القابر المكتشفة  
 التى يزورها السواح فى الصباح

وتقدمت برأسى داخل البهو ، وانا اؤخر قدمى الى الخارج لرأيت  
 السيدة الفرنسية راكبة ، وقد اعطتنى ظهرها رائحة الى سقف  
 القبرة .. سقف فى لون السماء ، منقوش عليه نجوم وآلهة .. كانها  
 تصل ..

وتملكتنى رمية سررتنى فى مكانى بفسح دقائق . وكاننى لى  
 كابوس او عالم مسحور ، نم انتفضت ، وعمدت ادراجى لحسين ،  
 وخرجنا الى الطريق عائدتين ..

وسالت حسين ونحر نجتار الطريق بين الهضبتين ..

— أية الحكاية .. يعمل كذا ليه ؟

فأجاب حسين وهو ينظر أمامه :

— اتجنتت ..

— خلاص .. سابت حكاية الانارات

ومشى حسين بضع خطوات ، قبل أن يروى لى ماحدث لها



فى تلك الليلة التى دخل فيها البعثة وحسين السرداب ليفتحا الكنز ، ظلت الخوجاية يظفانة ساحرة فى بيتها ، تنتظر فى أية لحظة الإنيا الكبير ..

وفكرت أكثر من مرة ، فى أن تخرج من بيتها ، وتذهب الى كهف حسين ، لاستقبله عند خروجه منه ، ولكنها كانت تمذل فى اللحظة الأخيرة ، ويتأبها خوف من لقاء حسين ، إنها لا تعرف ماذا يدور فى رأسه ، وقد يصيح غاضباً فى وجهها بمجرد أن يراها ، ويقسم ألا تنال شيئاً من الكنز ، لقد رفض المال الذى قدمته له ، وسخر منها فى مزارة ، وقال لها انه لن يتفق معها على شيء ، وإذا أرادت أن تتكلم مع أحد ، فلتتكلم مع البعثة ، ثم أنها وعدته بأن تحبس نفسها فى بيتها ولا تخرج منه ، ولابد أن تمسك بوعدها ، حتى لا تزيد من ثورته عليها ، إنها تفضل أن تستشير عطفه ، ولن تفلح فى ذلك إلا إذا حبست نفسها فعلاً ، وقالت لكل من يأتى إليها أنها لن تخرج من بيتها ، حتى ياذن لها حسين ، وسيلهب أهل الجبل جميعاً ، ويتشفعون لها لدى حسين ، ويسألونه عن سبب تصرفها الغريب ، وسيخرجون حسين ، لأنه لن يقوى على تفسير فعلتها .. لن يقول لهم أنها تمشي سيدة بزوجها ، انه كان على علاقة بها ، وسيدعها حسين الى 'لجى' إليها ، يقول لها انه صليح عنها ، ومن بدى ماذا يحدث عندما يجي .. ربما استطاعت أن تعيد علاقتها به ، ربما أقنعت بعد ذلك بالزواج منها ، وعاشا معاً فى الجبل تشبع بحسنة القور .. الذى يمد إليها 'شوة' الشياح كلها معها ، وتستعير فى نفس الوقت فى مفارقت 'الكحت' ، باحثة عن كنوز جديدة .. دون أن يخبر عنها أحد يوماً من الأيام ، كما فعل حسين ، ويقول لها أنها خوجاية ، وليست من 'أهل الجبل' ..

لقد تعرضت للطرده من الجبل أكثر من مرة ، ولابد أن تحسن نفسها ضد هذا التهديد الملق فوق رأسها كالكاوبوس ، طردها البعثة يوم ماتت زوجته مريم ، واضطرت الى أن تتوسل اليه وترضى عند قدميه باكية ، وطردها حسين وهو حزين على والده وشقيقته ، ولكنها نجحت فى جذبه إليها ، وقدمت له جسدها فكان كلها ضمنها اليه بنزاعيه القويتين ، أحست كانه يضمها الى الجبل كله ، وأنها تخلصت نهائياً من تهديد الطرد .. ولكن جسدها لم ينتج فى مهمته ، غضب عليها ، وغار من ذلك الرجل الذى تردد على بيتها ، ولم تلب القيرة فيه ، بل أشعلت حقد واحتقاره لها ، فكاد يطردها من الحياة كلها ، لا من الجبل وحده ..

وكما استرسلت الخوجاية فى هذه الأفكار ، تزايد قلقها واشتدت مخاوفها ونظرت الى النقود التى تستشترى بها الكنز لعلها تجد فيها سبباً للاطمئنان

ان الكنز لا معنى له ، بشر هذه النقود ، انهم يريدون الطعام والملايس والذهب الذى سيحصلون عليه كن يطمعهم ولن يكسومهم ، لابد أن يحولوه أولاً الى نقود .. الى هذه النقود بالذات ، التى تملكها ..

إنها قوية بهذه النقود ، فلا داعى للخوف إذن ، ولتدس النقود فى صدرها وتذهب الى كهف حسين وتنتظر خروجه وستلوح له بالمال امام الجميع ، وهندئذ لن يستطيع أحد أن يقاومها

ودست الأوراق المالية فى صدرها ، واتجهت الى البساط تريد الخروج ، ولكنها تذكرت من جديد ، أن حسين رفض أن يأخذ المال عندما عرضته عليه ، وكان يستطيع أن ينتهز الفرصة ويغنى جزءاً منه ، بعيداً عن أعين البعثة وأهل الجبل ، فيزيد من نصيبه ومن ثرائه .. كيف رفض حسين المال ، أنها لا تفهمه ، ما تزال الرجل الذى ضمها معه سرير واحد ، غريب غامض مبهم لديها .. ان لملمس جسده العارى ، لا يكنى لأن تعرف عنه كل شيء .. وإذا كانت لا تعرف ماذا يدور فى رأس حسين ، فهي لا تعرف قطماً ماذا يدور فى رؤوس أهل الجبل جميعاً .. ما أدراها ان حسين لو رفض المال أمامهم فسيخلون عنها هم أيضاً ، ويضيق منها الكنز والجبل معاً

خير لها أن تحبس نفسها مكانها ، وتنتظر ، انها لا تملك سوى الانتظار الذى يفتت أعصابها ، ويدفع بها الى حافة الجنون .

وانظرت طوال الليل ، واقبل الصباح وهى واقفة عند بابها المفتوح ، تنظر الى الغلاء أمامها ، كأنها أم تنتظر عودة ابنها التائه ، عيناها تدوران فى محجريهما زائفتان وراء أى شيء قد يخيل اليها أنه يتحرك قادما نحوها . . . ولكن الشمس ادرت وتشتت خضوه الصباح وهى لا تتلقى أى نفا . . . ورأت من بعد رجلا يتحركون ، وبذلت جهدا كبيرا ، وهى تصيح منادية لهم بأعلى صوتهما ، فلم يلتفتوا اليها ، ومضوا فى سبيلهم كأنهم لا يسمونها . .

ومر رجل اخر عند الافق ، وبادته صارخة والتفت الرجل اليها ، ووقف بركة ينظر ناحيتها ، وهى تواصل الصراخ ، وتلوح بيدها ، ثم استدار الرجل مبتعدا عنها . .

ولم تصفق نفسها ، خيل اليها أن من تراهم ليسوا رجالا حقيقيين مجرد اشباح فى خيالها ، ان من عادة رجال الجبل ان يلبوا نداء ~~الجن~~ ، ان يسمروا الى مصدر أى نداء ، فمابالهم لا يكتشفون بصراحتهم . أن من تراهم ولاشك ، اشباح . أو . .

وفزع للخطر الذى يرق فى رأسها هل يبتولها امرا هل حصلوا على المال . هل حدث هذا ؟

وجرت عبر حديثها الصغيرة ، حتى وصلت الى بابها وتقلصت يدها على الباب ، لا تجسر على فتحه والخروج منه ، طغى عليها ذلك الخوف الذى سهر فى قلبها طوال الليل ، وايقنت أنهم سيقفلونها فى اللحظة التى ستمير فيها باب الحديقة ، أنهم يحاصرونها الآن ، وهم مختلفون خلف الصخور ، وعندما تتقدم فى المراء ستطير رصاصة فى الهواء وتستقر فى قلبها او دماغها

وغيم الياس القاتل على عينيها ، انها لا تطيق القتل على هذا النحو . . . ليتها تركت حسين يقتلها ، قتلها فى ذلك الوقت كان شيئا مفهوما . . أما مصرعها فى المراء برصاصة تنطلق من مكان مجهول ، فأمر غامض فظيع لا تستطيع ان تتحملة

وتذكرت فجأة باريس التى كانت تعيش فيها وهى صغيرة وزوجها عالم النار الذى اتى بها الى هذا المكان ، وودت لو انها تصرخ فيسمعون

استغاثتها فى باريس . . او فى الشاطئ الشرقى . نعم . هناك فى الشاطئ الشرقى ، الرجال الذين ينتظرون الكنز لتهريبه . ستبيع فى هاروا ، وتقلل الابواب وتنتظرهم حتى يتأهبهم القلق على الكنز وعلى المال الذى سلموه اليها ، فيسمون وراهما ، ويأتون لاتخاذها . .

وهضت البيت ، واغلقت عليها الابواب والنوافذ ، انكشيت واقفة فى أحد الاركان ، تنفض وترجف رعبا . .

ومضى وقت لا تعرف اكان ساعات ام دقائق ثم سمعت طرقا على الباب . .

وجرت الى الباب والتصقت به ولكنها لم تجب . .

واستمرت الطرقات على الباب وقد شعر الطارق بحركتها وهى تسرع مندفة الى الباب وتلتصق به . .

وارتفع صوت امرأة :

— افتحي ياخوجاية

وهست الخوجاية بصوت لإهت مسوع :

— انت مين ؟

أنا مسعد . . أخت الشيخ طليوى

وتردعت الخوجاية فى فتح الباب لهذه الزائرة التى لم تتعود استقبالها فى بيتها ، اتكون هذه اللئاة ، هى بداية كمين مد لاخراجها من البيت . .

ورقعت الخوجاية صوتها المنفل

— جايه غرضك ايه يا مسعد . .

فأجابت مسعدة فى نفاذ صبر :

— بجولك افتحي الباب . .

ودقت الفتاة بيدها على الباب فى الخارج فانهارت مقاومة الخوجاية ، وفتحت الباب يائسة . .

ووقفت مسعدة مكانها حائرة ، تنتقل عيناها بين الخوجاية وداخل البيت ، وهى تنتظر كلمة ترحيب ، أو دعوة الى الدخول فيصدها وجوم الخوجاية ، وشحوب وجهها ، وعيناها الزردتان الباردتان ، اللتان لا تفصحان عن أى معنى . .

وقالت مسعدة فى ارتباك :

- المدة وحسين فين يا مسعدة .. لجر الكنز .. علوا ايه ..  
ودقست مسعدة رأسها في صدرها ، ووضت يديها على اذنيها ،  
كانها لا تريد أن تسمع ما تقوله ..  
- ملجوش حاجة .. لجير بير ..

وسرخت الخوجاية في شراسة وهي تنتفض :

- بير .. بير كيف .. انت كدابة .. كلتكم امين ..

فلطمت مسعدة بكفيها عن اذنيها وصغها وقالت في حرة :

- ياريتي كدابة .. ياريتي كدابة .. كلتكم حالوا كده .. ولا  
يراح مدحج البينة وحسين .. كلتكم دخلوا الكحت وضافوا البير ..  
وطلموا .. محدش يصدق الا لما يشوف بيته .. الرجال والنسوان  
والغياال .. كلتكم يجو ذى اليراد سلماتي المجذوب .. روى شوقى  
بنفسك .. روى يا خوجاية ..

فتغرت اليها الخوجاية في رية .. هنا هو الكمين الذي اعدوه لها.  
يريدون استدراجها الى السرداب ، ليفتكوا بها هناك ، ويستولوا  
على ثمنها ، بعد أن استولوا على الكنز ..

وصاحت الخوجاية في غضب :

- انا مش خارجة من بيتي لحد ما يجيني حسين .. روى لحسيني ،  
وجويله يدى على دوبييت .. حيا ..

، ولم تحرك مسعدة من مكانها كأنها لم تسمع طلبها ، ونظرت اليها  
في تصميم ، وقالت في صوت حاد :

- اسمي كلامي الاول يا خوجاية ..

وهتلت الخوجاية للمجنونة .. وهي تنفض على مسعدة وتحذبها  
بيدها لتنفض :

- انهض يايت .. موش ح اسمع حاجه ، وموش ح اجر ح حاجة  
لحد ما يجي حسين هنا ..

وفوجئت الخوجاية بمسعدة تقف وتمسك بها بيدين فويتين ،  
وتدفعها الى المنعد الذي كانت جالسة عليه ، وتضطرها الى الجلوس ،  
وهي تقول في تصميم تحديدي :

- جفلك اسمي كلامي .. الكنز ولجيتاه بير .. ح كجمد نكي  
عليه .. ياما بكينا .. والجبل ما انتجش من مطر ح .. انتكنز

- غرضي اجولك كلمتين سر ..  
وارتجفت الخوجاية ، فزعت من « كلمتين سر » وفكرت في اغلاق  
الباب في وجه مسعدة ، توقفت ان تستدرجها الفتاة خارج البيت  
ليقتلوا بالرصاص ويتخلصوا منها ، ولكنها شغرت بالحنين الى صوت  
مسعدة ، انه يشمرها بانها ليست وحدها .. ليست متبوءة محبوسة  
في بيتها .. ثم صوت مسعدة يستطيع ان يثبتها بمصر الكنز ..  
وقالت الخوجاية في صوت ضعيف :

- ادخل ..

وتقدمت مسعدة الى داخل البيت ، واسرعت الخوجاية باغلاق

ورامها ..

واشارت الى مقعد ، ودعت مسعدة الى الجلوس عليه وهي  
تسألها :

- انت اخذت الشيخ طلباوى

واجابت مسعدة وهي تجلس القرفصاء الى جانب المقعد ، يئسا  
جلست الخوجاية على مقعد اخر ..  
- ايوه ..

ولم تهتم الخوجاية بجلوس مسعدة القرفصاء ، اعتادت رفض نساء  
الجلوس على المقعد كلما جئن الى بيتها ، يطلبن منها ممالحة عيسون  
اطفالهن ..

وبحثت الخوجاية عن وسيلة تسال بها عن الكنز .. انه امر طبيعي  
ان تسال عما حدث ، فهي مشتركة في الكحت بئها ، ولكنها حذرة  
خائفة ، قلبها يحذنها ان حسين على اقتنع اهل الجبل الا يسلموه  
لها ..

واطرقت الخوجاية فلاذت بالصمت ، حتى سمعت مسعدة تقول لها  
في خجل ، وهي تمسك باصابعها في مستند المقعد :

- انا حنجز ياخوجاية ..

ورفعت الخوجاية رأسها ، ونظرت الى الفتاة في ذهول .. امكن  
ان تكون هذه الزيارة بريئة ، وليست كميناً كما تتوقع ومرت بها  
لحظة خاطفة من الطمانينة ، وانتهزت هذه اللحظة فتجاهلت كلام  
مسعدة ، وسالتها في لهفة وعظمية :



لسة جواه .. انا خايله حسين يطفش . يروح الزاحات والا يركب  
اللورى على بحرى ما يرحش واصل . ولا تيجوزش  
واستمتعت الخوجاية الى كلام مسعدة فى غير فهم . كانت تنظر  
اليها مذعورة وعينها الزرقاوان مبدودتان الى عينيها السوداوين ،  
وهى لا تكاد تصدق ان مسعدة فتاة واحدة .. انها تتكلم وكأنها  
جيش من النساء لا تستطيع ان تصد امامه ..

ومضت مسعدة تقول وقد رأت الخوجاية مستكينة مستلمة :  
- جيت لك علشان تشتري لى ..

وسكتت مسعدة لحظة ، وهى تلمس يدها ، صابرا ، ثم استأنفت  
تندم ما تريد شراءه وهى تخرج صرة معقودة وتفكها بأصابعها فى  
عصبية .. كانت تريد شراء حلق ، وزجاجة عطر ، وبعض الاقمشة  
الحريرية ، وأفلحت فى فك المقد الكثيرة وأخرجت من الصرة أوراقي  
مالية من فئة الجنيه ، والخمسين وال عشرة قروش ، ومعها نقود قضية  
زعمدية ، مدت بها يدها الى الخوجاية ..

واستولت الممشة على الخوجاية .. وهى لا تصدق ما تراه .. ثم  
تعد تصدق أى شئ .. ان معها نقودا كثيرة تريد اعطاها لاهل الجبل  
فاذا بفئة فقيرة منهم ، تاتى اليها وتقدم لها نقودا ..

وهزت رأسها فى التائر ، وترأجمت : امام منظر النقود الممدودة  
اليها ، كأنها نقود مسحورة تخشى ان تلمسها ..  
وصاحت فى فزع :

- الفلوس دى بتاعة ايه ؟

فقالت لها مسعدة فى صبر :

- دى الفلوس اللى ح تشتري بيها الحاجة ..

وسالت الخوجاية فى غير فهم :

- حاجة ايه ..

وتنهدت مسعدة ، وبذات تروى لها من جديد ، فى صوت هادى ،  
وغبتها فى الاستعداد للزواج بحسين على ..

واستمتعت اليها الخوجاية هذه المرة ، وفهمت كل كلمة قالتها ..  
فللت كلمات مسعدة فى اذنيها ، وكأنها خناجر حادة تنغرس فى عظام  
راسها ..

حسين على سيتزوج هذه الفتاة التى تقف امامها ، وهى تريد منها  
ان تشتري لها معدات النخلة .. حسين على قد ضاع منها .. والكنز  
ضاع . حصلوا عليه ، ثم جاءت هذه الفتاة لتكذب عليها ، ولتقول  
انهم وجدوا بثرا . من أين جاءت هذه الفتاة بالنقود . باعوا الكنز  
لاخرين ، وحصلوا على المال

وهذا هو بعض نصيب الفتاة منه .. نبدوها .. سخروا منها ..  
لم يجد لها مكان بينهم .. أين ذهب . الى من تلجا ..

وقامت الخوجاية فبكرت بصموية .. وبذلت جهدا كبيرا لتضيق  
اعصابها ، ولتحتفظ بعقلها متزنا ، وسالت مسعدة فى مسدود  
مصطنع :

- مين اعطاكى الفلوس دى ..

واجابتها مسعدة فى صوت ملء بالاسى :

- دول اربعة جنيه وتلاتين جرش وتمانية مليم . حوشتهم فى  
لسع ستين ..

وقاطعتها الخوجاية بعد ان انهارت مقاومتها وأملت زمام اعصابها  
.. زعقت فيها :

- دا نصيبك م الكنز يا كدابة .. جوليل يمتوا الكنز لمن يا حرامية  
.. يا اشرار ..

ولم تجزع مسعدة من اتهامها .. حاولت ان تشرح لها ببساطة ،  
كيف ادخرت كل هذه النقود ، واستلعت صوت المراتين .. الخوجاية  
تستمرسل فى السباب .. ومسعدة تتكلم فى هدوء وصبر ، موضحة  
لها كيف جمعت نقودها من ثمن الاطباق القش التى باعتها يوما ما  
للخوجاية ، وتلوح بأحد الحنيئات وهى تذكرها انه نفس الجنيه الذى  
اعطته لها وعليها ان تفحصه لتتأكد من ذلك .. رعدة الخسوف  
قرشا اخذتها من شقيقها الشيخ طباوى عندما جاء لأول مرة بعد  
تعيينه فى امسيوط ، وهذا الزبال اخذته منه فى العيد الكبير . منذ  
ثلاث سنوات ، وهذه المشرة قروض اخذتها من أحد السواح . بعد  
ان انقلبت لها صورة فوتوغرافية ، و ..

وتركت مسعدة من حرسها ، اذ تدخل نيباب الخوجاية الى كفة  
غير مفهومة .. يصبحها بكاء ، تطول الى هويل وتشتجات حادة ..  
والترتبت مسعدة منها تريد ان تربت عليها وقد تآثرت ليكالتها ،  
ولكن المرأة هجمت عليها تصلمها وتضربها في ضراوة وعداوة ..  
وجرت مسعدة خارجة من البيت وهي على يقين انه جنت ..

## الفصل التاسع

وعلم اهل الجبل من مسعدة ، ان الخوجاية قد جنت ، فأسفروا  
عليها .. وروثوا لحالتها ، وطلب المدة من حسين ان يذهب معه  
اليها ليريا ما اسابها .. ووافق حسين ، واتجه الاثنان الى بيتها  
.. وعلى الرغم من انها وصلا بعد عودة مسعدة بقليل ، الا انها  
لم يجداها في البيت . وقال لهما احد الرجال انه وآما تجرى نحو  
الشاطيء الشرقي ، وهي تحدث نفسها بكلام غير مفهوم ..  
ووصلت بعد ذلك انباء من الشاطيء .. انها عبرت النيل الى  
الاقصر وكانت تبكي وتضحك وتتكلم بلفتها غير المفهومة مع المراكبي  
.. وما كادت المركب تقترب الى الشاطيء ، حتى قامت تريد ان  
تقفز منها ، وهي تظن انها تستطيع بلوغ الارض لولا ان امسك بها  
المراكبي ، ولم يطلقها من يديه حتى وصلت المركب الى الشاطيء  
فعلا ، فانفلتت منه ، وجرت لائوى على شيء ..

وانتظرت مسعدة عودة المدة وحسين  
ورأت حسين يارو الى كهفه ، والمدة يواصل السير ، فذهبت  
اليه ، وحدته عن خوفها من هروب حسين من الجبل وطلبت منه  
ان يكلف احدا من الرجال بالذهاب الى الاقصر ، ليشتري لها ما  
تريده ، وليكتب خطايا يرسله الى شقيقها في اسبوط ، ليستدعيه  
فورا لمقد رواجها في الحال ..

وقالت مسعدة للمدة في صوت قوى جريء :  
- لو حسين متجوزش يا عمدة .. خ يفتش في الجبل وما غداش  
تشوفه واصل

وامن المدة على كلامها ، وقال لها ان هذا هو رايه ايضا وعجب  
المدة لقدرة مسعدة على التفكير في الزواج في مثل هذا اليوم  
وتصميمها على اتمامه بسرعة ، ولكنه اعترف بينه وبين نفسه ، انها



على حق ، فربما كانت الزوجة هو الوسيلة الوحيدة للإبقاء على حسين  
على في الجبل بين أهله .. كيف استطاعت مسعدة أن تفكر وتصرف  
بمثل هذا الصفاء ، بمد لحظات من وقوع الكارثة التي هزت الرجال  
جميعا .. وهزته حزينا

وتأمل العمدة وجهه الصريح ، فتذكر وجه أخيه الشيخ طلباوى  
.. نفس تقاطع الوجه الوسيم ، تزيد عليه انوثة وكبرياء . نفس  
الطموح والجرأة عنه الاثنين . الطموح الذي دفع الشيخ طلباوى  
الى الفرار من الجبل وهو صبي صغير ، ليذهب الى أسبوط ، حيث  
يتعلم ويصبح موظفه في الحكومة يتكبر على أهله ، ويتنكر للحياة  
الجبل ، ويريد أن يفرض سيطرته على شقيقته لياخذها معه الى  
أسبوط . هو نفسه الطموح الذي دفع بمسعدة في طريق مناقض  
تماما للطريق الذي سلكه أخوها .. فتمسكت بالجبل ، ورفضت  
عروض شقيقها ، وتمسكت حتى لا تذهب الى أسبوط .. طموح الرجل  
جعله يهجر أهله ، ويعيش في المدينة ويتزلف للكبراء الأغنياء ،  
وطموح المرأة جعله تمسك بأهلها ، وتعيش في الجبل ، وتحلم  
بالزواج من حسين .

وبتسم العملة - وهو يسترسل في أنكاره ، متأملا وجه مسعدة  
وطافت براسه صورته عندما كانت تائبته باكئة تدعك عينيها  
المحمرتين ، وتشكو له آخاها ، لانه يهددها ويضربها ليضطرها الى  
الذهاب معه الى أسبوط ..

كان يقول لها اول مرة :

- اسمعى كلام آخركى يايت . احنا متعرفش نسوان يعصوا كلام  
رجالهم

فتزغر فيه بعينين شريستين وتقول له في صوت مفترس :

- لا .. يجتلتنى ولا عديش معاه على أسبوط ..

ولولا أن الشيخ طلباوى لا يستطيع أن يقتل ، بعد أن أخذ مظهر  
رجال الدين الاتقياء ، لكان قتلها من زمن ، ولولا انه فزع من صراخها  
وبكائها ، واستعدادها للشجار معه بأظفارها وأسنانها لما تركها ،  
ولانتزعها وحملها معه

بقيت مسعدة يتيمه وحيدة ، تصنع أطباق القش ، وتعيش مع  
عمتها العجوز التي هجرها زوجها منذ عشرين عاما أو أكثر

واستمعت مسعدة آلاف المرات الى قصة زوج عمها ، وهي ترويه  
لها كل ليلة منذ كانت طفلة صغيرة ، انها قصة تتكرر مع نساء  
كثيرات في الجبل .. يأتى صباح يوم ، فتجد الواحدة منهن زوجها  
قد اختفى .. فتضي بقية حياتها ترقب الاقرب البعيد لعلها تسراه  
قائما .. ولكنه لا يعود .. وهي لا تياس .. وكرهت مسعدة ذلك  
المكان البعيد وراء الاقرب ، حيث يختفى الرجال .. ولم تشعر بالطمانينة  
طوال حياتها وهي تنظر حيث الشمس تقيب أو غروب ، كان الحزن  
يطغى عليها فتتلفت حولها الى صخور الجبل وكهوفه وأهله ، تلتبس  
في منظرهم الطمانينة والحنان ، واعتادت مسعدة أن تنتظر هي الاخرى  
زوج عمها ولكنه لا يعود .. وتنتظر يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة  
.. كل صباح وكل مساء ترقب الاقرب وكان يخيل اليها انه سيحيى  
ومعه ابوها وأنها من عالم الاموات ..

وسالت مسعدة أحد الايام العمدة ، هل صحيح أن المسايخيط ،  
سيبعثون من جديد ، فاكد لها انهم سيبعثون وسيبعثون الى  
الحياة ، ولذلك يحتفلون في مقابرهم بطعامهم وأموالهم ، وتحتفظ  
النساء بحليهن وجواهرهن ..

وأطرقت مسعدة بعد أن استمعت الى كلام العمدة ، ثم رفعت  
راسها وقالت له وكأنها فى حلم :

- طول ما عمتى مستنطرة جوزها . وانا مستنطرة أبوى وأمى  
يرجعوا معاه حدانا ..

ومنذ ذلك اليوم ، وقف العمدة فى صفها ضد أخيه الشيخ  
طلباوى .. خفق قلبه بحب أبوى لها ، وأيقن أنها لن تكون سميعة  
أبدا لو تركت الجبل حيث تنتظر وتحلم ، وذهبت الى أسبوط  
حيث تعمل خادمة فى بيت أخيه ، مهانة ذليلة ، بلا حلم ولا أمل  
.. أحس العمدة ان هذه الفتاة تحب الجبل موطن أهلها بنفس  
قوة حبه ، وشعر ان الدم الذى يجرى فيها هو نفس الدم الذى يجرى  
في عروقه .. وتمنى لو كانت كل نساء الجبل ، وكل رجاله مثلها ..

وحول العمدة عينيها عن مسعدة ، وقد غمره حنان كبير ،  
واعتراف لها بالجبل لانها احتفظت بحبها للجبل فى اللحظة التى  
خاها فيها الجبل ، ثم عاد ورمقها فى اعجاب وثقة ، كأنه يريد أن

يمرض بنظراته إليها كل الاحتقار الذي تفيض به عيناه عندما تقام  
على أخيها الشيخ طلباوى ..  
وقال لها العمدة فى هدوء :

— اطمنئى يايت .. دينا يتم كل حاجة بخير .. ياذن الله  
وانصرف عنها مبتعدا ، والراحة تملأ صدره .. لم يتوقع أن  
يحس بهذه الراحة سريما بعد مفاجأة السرداب ، ولكن مسعدة ممتنة  
ثقة كان فى أشد الحاجة إليها .. طمأنته قبل أن يفيق من الصدمة  
.. طمأنته قبل أن يخلو لنفسه ويفلق

وحت العمدة خطاه ، وأسرع رائعا قائمه ، كأنه يشمر بمينى  
مسعدة تراقبانه وترسلان إليه شمعان إلى العزم والتصميم وملا رثيته  
بالهواء فى كبرياء ، وهو يفكر فى الخوجاية التى فقت عقلها لضياح  
الكثر ، ومسعدة التى صفا عقلها لضياح الكثر ..

وكاد يتم بصوت مسعود محدثا نفسه ، كلتنا شدداد ..  
تسوانا ورجائنا شدداد .. ح نصبروا على اليل .. احنا منوطيش  
يا بوى ،

وكانت مسعدة تراقب العمدة فعلا وهو يعتمد عنها ، ولكن يمين  
واحدة .. العين الثانية كانت مشغولة بمراقبة كهف حسين ، فدرت  
أن تحرس الكهف ، فاذا خرج حسين منه تبعت واذا رآته يعتمد  
عن الجبل ويضى الى ذلك الاق الذى يختفى وراءه الربيعال ،  
فستصرخ وتستغيث بالرجال ليلاحقوا به ، وستكون اول من يتعلق  
به بإظافرها بإستانها ، لن تدعه يفلت أبدا ..

وظلت تراقب الكهف ، حتى جاء أحد الرجال ينادى على حسين ،  
ويقول له أن العمدة يريد ..

وخرج حسين من الكهف ، ولح مسعدة تجلس عن يده ، فلم يبد  
عليه أنه يكثر لرؤيتها ، ومر بجانبها دون أن يلتفت إليها ،  
وابتسمت مسعدة فى قراءة نفسها ، كانت تعلم عن  
يقين أن المسعدة يناديه ، ليملته بضرورة الإسراع بالزواج منها  
ولم تشعر بقلق أو خوف .. كأنها منطونة تماما الى مصيره إليها ..

\*\*\*

ووصل الشيخ طلباوى قادمًا من أسبوط بعد أربعة أيام وكان يومًا

مشهورًا من أيام الجبل ، فقد عادت فى نفس اليوم « الخوجاية » بعد  
إيجابها الطويل فى الشاطئ الشرقى ..

وتناقل أهل الجبل فى دهشة ما صنعته الخوجاية عندما مرت  
بالمهندس فى القرية النموذجية ، وأمسكت بلباسه تريد أن تمر بها  
وهى تدفقه تريد طرده هو ورجاله من القرية ، مملنة انها قد نصبت  
نفسها حامية لأهل الجبل ، وحامية للإنسانية من أن تندسور تحت  
زحف المدينة الفاسدة .. ولم يفهم أهل الجبل ما قالته الخوجاية فى  
الدفاع عنهم ، ولكنهم علموا انها مستعدة لكل شيء .. حتى القتل  
من أجلهم ، ورجعوا بما لعلته الخوجاية ، ولكن الدهشة والمجب ظلا  
مستقرين فى نفوسهم ، يصحبهما شك لم يصل الى حد اليقين ، فى أن  
الخوجاية تصرف من شذو أو جنون ..

واكد شذو الخوجاية ، تصرفاتها الأخرى ، فبعد أن انتهت من  
شجارها مع المهندس ، تركته فجأة الى طريقها الى بيتها فصادفها أثناء  
سيرها معاون القرية النموذجية ، وهو يصطاد العصافير بيندقيته ،  
وهجمت عليه الخوجاية ، وانزعت منه سلاحه على مرة ، وصوبته  
الى الرجل ، تريد قتله .. وهى تقول له فى جنون :

— أموت واحد ذيك بدل مايسبك موت ألف مصغورة

فصاح الماوان متوسلا وقد استولى عليه الدمع :

— لكن دول مصافير ياخوجاية ..

— مصافير أحسن منك .. المصافير ماتقتلش حد ..

وادرك الماوان أنه أمام مجنونة ، وأنها ستقتله حتما ، فحاصل  
الاعتدال ، وومعدها أنه لن يقتل المصافير أبدا ، وطلب منها أن تعظم  
بندقيته ، واستمر فى توسلاته حتى اقتنعت أخيرا بأنه صادق فى نيته  
فحطت البندقية ، ثم طلبت منه أن يعطيها المصافير التى اسلادنا  
لندفنها .. وظاهها الماوان المصافير ونجا بجلده

كان أهل الجبل يتناقلون هذه القصة ، رسؤال واحد يتكرر على  
لسانهم يرددونه ضاحكين ساخرين ، عما اذا كانت الخوجاية تدافع  
عنهم لانها تظنهم مصافير .. ام هى تدافع عن المصافير لانها تقتلهم من  
أهل الجبل

ومع ذلك لم يضحك أحد عندما جاءتهم الخوجاية تزودهم بمعد

عودتها' : 'لِ يَيتها' . قالت لهم كلاما أفزعهم ، ووردت لهم ان المهندس  
 هــ هـ : ' : سيقفل الجميع حالا مشعينا بقوة البوليس ، وكانت تتكلم  
 بنسبة مرتفع كأنها تلتى خطبة . ولم توجه كلامها الى أحد بالذات ولم  
 تقع نظراتها على رجل معين ، لا العمدة ، ولا حسين ، ولا أى رجل آخر ،  
 كانت نظراتها واسعة مرتفعة فوق الرؤوس ، ومضت تثير الفزع بكلامها  
 أيضا وجدت جماعة من الرجال والنساء أو الأطفال .. وحتى وهى  
 تسير وحدها عائدة الى ييتها ، كانت تواصل رواية شجارها مع المهندس  
 كأنها تريد إثارة صحور الجبل  
 والتف أهل الجبل حول العمدة بعد ذهاب الخوجاية ، وقد أقبل  
 الليل ، وسادهم الوجود ، وظلوا ساهمين حتى انفجر حسين على  
 فجأة ، وقى صوته كل المرأة التى يخترنها من فسله فى الكحت ، صاح  
 فيهم قائلا :

« انا ح اخرج البنيات .. »

ولم يعترض أحد على حسين ، بل اقتربوا منه صامتين ، كأنهم  
 يريدون التعبير عن موافقتهم ، وعن رغبتهم فى المشاركة وفى التنفيذ  
 وفى تلك اللحظة أقبل الشيخ طلباوى قادما من جوف الليل ، وما كاد  
 يرى الجميع حتى ظنهم يتشاورون فى أمر زواج اخته مسمدة من  
 حسين على ، كان هذا الزواج هو كل ما يشغل رأسه ، وقد اعد هجوما  
 على حسين وعلى حياة الجبل وتماسها

ولكن العمدة أسرع بتوريث الشيخ طلباوى فى مشكلتهم بمجرد ان  
 التى عليهم التحية ..

وظن الشيخ طلباوى ان هذه المشكلة ستساعده فى عرقلة الزواج ،  
 فقال وهو يكتف فرحه .. وقد تلون صوته بشماتة يحاول اخفائها :

« وح تملوا ايه .. سبلنوا امركم لله

فصاح أحد الرجال :

« حسين على ح يخرج البنيات .. »

ومسق الشيخ طلباوى وهتف على الثور :

« ادنى اخرتها .. شقيقتى لن تتزوج مجرما

وتلت الشيخ حوله ليرى وقع كلماته العربية الفصحى فى نفوس  
 المـ : « .. وسرعان ما أدرك انه ارتكب خطأ جسيما . كانت العيون

تنظر اليه ساهدة كذا : قلاد بالشر : وزاد شعوره مضطربة موقفه .  
 عندما رآه صمتين لا يريدون مناقشته .. كأنه عقدا المزم على  
 الحريس .. وعلى انك به لا اعترضهم

وتعلم الشيخ طلباوى وانكش داخل جيبته ، وبدأ يبحث من  
 مخرج للمناق الذى وقع فيه ، اراد ان يقول أى شيء وان يسمع منهم  
 أى كلام ، وقال فجأة :

« ماكتبوا شكوى للحكومة .. »

وقطع حسين على قصته التى يروها لى عند هذا الحد ، ونظر الى  
 وكأنه يقول لى « انت غاف الباقى »

وكانت الشمس تبرز عند الاق البعيد ، وتور الصباح ينتشر سريما  
 فى كل مكان ، يطاردنى ويدفعنى وأنا أسير بخطوات متمثرة ، وجسد  
 يكاد الارهاق يهلكه ، فى الطريق الطويل الى القرية النموذجية

يبد الضوء ، وغبى الجامحة فى البقاء ، وكشف لى حقيقتى وهى  
 اننى لست من أهل الجبل ، ولا بد من مودتى الى العالم الذى جئت منه  
 .. وكان تعبى والالم فى ضلوعى ، وتضعف قوى جسدى ، حقائق  
 تصرخ داخلى ، انى لا بد ان اعود

ورغم ذلك تشبثت بلحظات اخيرة اقصيها فى الجبل واسمع فيها  
 صوت حسين على ..

سألته فى صوت ضعيف مكثود :

« انت ميسوط من جوازك يا حسين

فصحك قائلا :

« الحمد لله .. »

وبان التردد عليه ، قبل ان يقول وكأنه يهوس الى بر

« تعرف مرتى يتجول ايه .. وسكت وقد زاد ترده

فسألته ، وأنا المح من بعيد مبانى القرية النموذجية .

« بتقول ايه يا حسين .. »

فقال بصموية :

« انت .. يا حسين ان عرمى سبلوا الكحت

## الفصل العاشر

وصلت الى القرية وأنا بين اليقظان والنائم ، اتمس بطريق خطواني  
نصموبة واكاد لا اذكر من أين أتيت ، والى أين وصلت وكل همى ان  
أرى شيئا يصلح لان اتى عليه جسدى وانام ..

ورأيت من خلال جفونى النصف ممضة .. المهندس قادما نحوى  
فى عباده الخضراء ، يسبقه صوته وهو يقول فى انفعال :

— اوه ياربى . اوه . لا لا . اوه يا استاذ فتحي . موش ممكن  
موش ممكن ياربى

ويبدو ان متظروى كان مخيفا ، ذقنى طوبلة خشنة ، وملابسى  
متسخة وشعرى متكوش ، وعيناي متفوختان محمرتان .. وجسدى  
يتطوح فى الهواء مع كل خطوة متمتره اخطوها ..

ولم استطع مواصلة الانصات لتأوهات المهندس ، كان صوته يطن  
حولى بلا معنى . وطرقت اذنى كلمات وجمل متقطعة .. افكرتك  
رجعت الاقصر . عبلوا فيك حاجة . تحب تفطس . اوه ياربى .  
واستمرت الكلمات تلاحقنى حتى وصلت الى باب الفرقة التى قضيت  
فيها الليل من قبل فقلت له بصوت لاهث :

— انا رايح انام  
فسال فى لهفة .

— لكن ايه اللى حصل ؟  
فاجبت بلا دوى :

— بهن .

وفتحت باب الفرقة ، فראيت السرير عن قرب واغلقت الباب خلفى ،  
ولملى انفتحة فى وجه المهندس . والقيت بجسدى على السرير . .  
ونمت ..

واستيقظت عدة مرات أثناء نومي ، فتحت عيني اول مرة ، وذكرت

حسين على ، وهو يقول لى قبل ان اودعه . ان زوجته تلح عليه كل  
ليلة فى ان يتم الكحت ، ولم اعقب على كلامه بشئ فى ذلك الوقت ،  
ولكنى الان وانا راقد على السرير ، اريد ان اقول له اشياء كثيرة عن  
الكحت . راسى ملى بكلام غير واضح ، اشبه بالهلاليان

قلت لنفسى : كان يجب ان اتصح حسين بايلاغ مصلحة الانار بمكان  
الكتر . فيتولى رجالها فتح القبرة الفرعونية . وستحدث ضجة  
عالية ، مثل التى وقعت بعد اكتشاف مقبرة توت منخ آمون ، وسيأتى  
الاف السياح الجدد ، كل عام لمساعدة القبرة الجديدة ، وفى نفس  
الوقت ، تقوم نساء الجبل باعداد الطبايق القش ، ويقوم الرجال بصنع  
التماثيل ، ويتيم اهل الجبل معرضا دائما لمصوغاتهم ، ويبيعون منها  
العشرات كل يوم للسباح . انهم يصنعون اشياء جميلة حقا ولا يتقصها  
سوى الناس الذين يشترونها . وامامهم فرصة ذهبية ، لياين اليهم  
الناس من جميع انحاء العالم . فرصة الاعلان عن كشف مقبرة جديدة  
فى المنطقة التى يسكنون فيها

ان الكتر الفرعونى لى يتدد . ولن يشتريه مهربو الانار بشئ بخس  
.. بالمكس ، سيمصبح الكتر دماية لا تقدر بمال لاهل الجبل  
ولصناعتهم

وتخيلت حسين على يستمع الى هذا الاقتراح ، ويتردد فى الاقتناع  
به . وينظر الى حلفا . ثم يطلب منى ناصحا ان اكتم هذا الاقتراح  
بين خلسوى . والا ابوح به لأحد ، لان مجرد التصريح به بين اهل  
الجبل ، امر خطير غير مأمون العواقب . انهم لا يثقون فى رجال الانار .  
ولا يطمئنون الى معاملتهم ، فكيف يلقون بين ايديهم بالكتر الذى هو  
كل أملهم ..

\*\*\*

وتقلبت فى فراشى ، والنوم يكاد يطفى على ، لولا يريق صور تتناوب  
كانها حلم . ارى لخالها اهل الجبل ، وهم يفتحون القبرة فعسلا ،  
ويصلون الى الكتر ، والخوجاية التى لم تعد تطمش الى حسين على ،  
قد تأمرت مع بعض الرجال ليستولوا على الكتر وحدهم ، ويحصلوا  
على ثمنه منها دون ان يزعموه على الجميع بعمل الله ، كما يقول العمدة  
دائما . ان المهربين من مصلحتهم دائما الاتفاق مع بعض الرجال ..  
على ان يساموا اهل الجبل جميعا على لمن الكتر

وتخلت معركة تدور بين حسين على والرجال الذين انفقوا مع الخوجاية . وخلال المعركة يؤمن حسين بأن الكنز يشر الاطماع ، ويؤدي الى القتال . والى استغلال مهربي الانار لهم . وان خير شيء لاهل الجبل ، هو ان يبلغوا الحكومة عن الكنز . وسيلذك حسين نصيحتي التي قلنها له . وهي ان ينتهز فرصة اقبال الناس على منطقتهم ، بعد اكتشاف القبرة ويصنعوا التماثيل والاطباق القش . وسيلذك اهل الجبل عن هذه النصيحة ، وسيضيف عليها ، ان تسليمهم الكنز للحكومة ، سيلتظ الاشارة اليهم ، ويجعل الناس تهتم بمشاكلهم وعندئذ يطالبون الحكومة بصوت قوى ، بان تهيب لهم فرصة العمل . واسترسلت في احلامي

اهل الجبل يقتنعون بكلام حسين على . خشية ان يستمر القتال بينهم . بصورة وقد تقدمه المدة وحسين ، يعبر النيل الى الشط الشرقى ، ويذهب الى مركز البوليس ليبلغ شايبا اماسيه الدهول ، انهم جاؤوا ليلسوا الحكومة كنزا يقدر بملايين الجنيهات . . والجبل مزدحم بملأه الانار والسباح . والفقيسات يجلسن يمين اطباهن الجميلة . والزرجال يمينون تماثيلهم

هذا هو الكنز الحقيقي الذي اكتشفه اهل الجبل . تماثيلهم التي يصنعونها بايديهم هي الكنز الحقيقي . هن الانار الحقيقية . انها ليست مزيقة . لانها من صنع ايديهم . لانها نتيجة عملهم لانها ترمز للعمل . .

العمل هو الكنز الحقيقي . وانطلقت مع احلامي . الحكومة تقتنع بضرورة تشييد مصانع للتماثيل وللنسيج لرجال ونساء الجبل . وتقام المصانع الجديدة . .

الصانع التي هي الكنز الذي كانوا يبيعون عنه دائما . . وتقلت فجأة في فراشي . وانا احس بانقياض في صدري . ما هذا الهديان الذي يدور في راسي . ما هذا التخريف . هل تصنع الحكومة كل هذه الاشياء لاهل الجبل . ان صورة الحكومة مرتبطة في ذهن المدة بلقائه بالاميرة السكرانة في القرية النموذجية . انه لم يفلح في التفاهم مع الاميرة اخت الملك . المحكومة هي البوليس الذي يريد انتزاعهم قسرا من كوفهم . ليلقي بهم في بيوت لها قباب كالقابر . . الحكومة ليست حكومتهم ، انها لانفكر الا في السيطرة عليهم . ولا شيء

في الوجود يقتنعهم بانها ستحسن معاملتهم لو سلموها الكنز . بل هي ستتخذ تسليمهم للكنز حجة ضدهم ، فتحاكمهم لانهم كبحوا الجبل بغير اذن منها ، هذا هو منطق القانون . منطق الحكومة اني اهذى . .

وتذكرت مسعدة ، في تلك اللحظات القليلة التي رايتها فيها ، وهي تكذب على لانتي . من رجال الحكومة . وتقول لي ان زوجها حسين غائب في الواحات . انها لا تلمس على زوجها مع رجل من الحكومة وافقيت ، ولم اجد احلم بشيء . وذهت عن العالم من جديد وفتحت عيني للمرة الثانية ، لاسمع صوت امرأة عجوز تتحدث بالترنسية . وكانت تقول : اقترح مدهش يجب تنفيذه فورا . وعجبت للصوت الذي ياتي من خارج قفرتي . وخيل الى انها تتكلم عن احلامي عن اهل الجبل . ثم سمعتها تقول : « اني مقتنعة تماما ان هذه القرية تصلح ان تكون فندقا عالميا للسباح » ويجلس صوت السيدة اظن اني نائم في مركب . كنت ادري لماذا . وتمت من جديد

وفي المرة الثالثة ، فتحت عيني ودوت بها مستظلمة الحجرة التي انا . فيها ، وبذلت جهدا كبيرا حتى تذكرت انني نائم في القرية النموذجية ، ولجيت مرة مشبعة على الحائط خلفي وامضيت وقتا طويلا وانا اكرر في القيام والنظر الى المرأة ، وتحسست ذفتي فوجدتها خشنة ، وشعرت بجسدي لزجا تفوح منه رائحة العرق ، والتراب حول عنقي وفي رموش عيني . واكتشفت فجأة اني نائم بملابسي كاملة . حتى حدائي لم اخلعه ، وقمت فزعا ، ونظرت في الساعة فوجدتها الخامسة . صباحا لم مساء . لا اعرف ، ان الضوء قد يضيء عن الشروق او الغروب ، واتجهت الى المراة ، ويجلقت فيها فلم اعرف نفسي . . كنت اقرب الى القويلا من بني ادم . وجلست على حافة السرير يائسا لا ادري من اين ابدا ، كي اصلح مظهري . ولكني لم اصنع شيئا ، وسرحت مرة اخرى مع الجبل واهله

كنت كمن افاق من النوم بعد حلم غريب . يحاول ان يتذكر تفاصيله . وحاولت ان اتقن نفسي ياني لم اكن احلم فذهبت محاولاتي عبثا ، ولازمني الاحساس بان كل ما رايت في الجبل ليس حقيقة وانما

حلما . العمدة ، والرجل الذي كان يحرسه وكذا يقتلني ببندقية ،  
والقبرة الفرعونية التي رايت على جدرانها صور الفلاحين والفرعانة ؛  
والرجل الذي دعاني إلى شرب الشاي في كهفه بعد أن أمسك بخناق .  
وسمعة والشيخ طليباوي . وحسين على . والمقبرة التي رايت  
الخوجاية تصلي فيها للفرعانة

وظلت الصور والشخصيات تدور في رأسي بلا هدف او مغزى ، حتى  
سمعت خارج الغرفة صوتا اجش يسأل :

— كام صندوق بيرة عندك

فاخرجني الصوت من خمولي تماما ، وخرجت من الغرفة فرائته  
رجلا مهيأ بلبس جلابيا بلديا ، ينظر الى في فضول  
وأرشدني الرجل في رقة بالغة . لانتفق مع مظهره المهيأ الى  
الحمام ، وعلمت منه اننا في الخامسة بعد الظهر وان الشمس قد  
غربت ، وأحضرت لي ادوات الحلاقة ومناشف نظيفة ، وزجاجة كوبوليا ،  
وقبل ان يتركني . قال مقدما نفسه لي :

— انا عبد الصمد

فتظرت اليه في دهشة ، وسألته على الفور :

— أنت الماويل ..

فاجاب باسما :

— ايوه ..

انه احد رجال الجبل ولا شك ، نفس القامة الفارعة ، والمنظور  
المهيأ والصوت الاجش العميق ، لولا بعض التهمة المصطنعة التي  
تختلف تماما عن الرقة التي وجدتها في رجال الجبل . رقة عبد  
الصمد ظاهرة ، فيها تقليد كبير لابناء المدينة ، اما رقة الآخرين فمراسية  
في اعماقهم ، لم اكتشفها حتى عدت مظهرهم الخشن ولقائهم الجاف  
اول الامر ..

وقلت لعبد الصمد قبل ان ينصرف :

— البنابات ح تخلص امتي ..

فابتسم عن استناب يضاء لمعت في وجهه الاسمر وقال في اهتمام  
شديد :

— والله بابيه كفاية بنابات . وبلاش دوشة دماغ ، والحكومة بعمل

البنابات دي لوكاندة السباح . وانا مستعد اعلمها لوكاندة عظيمة .  
واجيب فيها الاكل المتفخر والشرب . ويسكن . ونبيت . وبيرة . وكل  
حاجة يموزها السباح ابيه راى سعادتك  
وفتحت منبورا آلياه وقلت له :

— فكرة ..

وانصرفت عنه الى غسل وجهي بينما وقف هو برهة متعللا ثم  
انصرف ..

وأخرجت من الحمام ، وما زال اقتراح عبد الصمد يدور في رأسي ،  
وانا أعجب للنهاية التي يريد بها هذا الرجل للمشكلة القائمة .. انه  
يريد أن يقرب مصغورين بحجر . يرضى اهله في الجبل ، فلا يضطرون  
الى سكنى البنابات ، وهو ينفق في طريقه مستغلا هذا المشروع  
احتاجته الخاصة ..

وتأملت عبد الصمد ينتظري في آخر الممر ، وقد انسفت انسامته  
.. انه دائم الإبتسام ، كأنه يدرب نفسه فعلا على مهنة منير صندوق  
من واجبه الترحيب بالنزلاء

وقال عبد الصمد في قلبي :

— بمعادتك موش ح تكلم البية المهندس في فكرة اللوكاندة

فأسلته في دهشة :

— أكلمه ليه ..

فالتفت حوله ثم قال :

— خسارة البنابات دي في اهل الجبل .. ح يوسخوها .. وكمان  
مفرشهمش يسكنوا فيها . والسباح محتاجين للوكاندة على الشط  
الغربي جنب الانار . يسحبوا يعيشوا في الجبل . فيه تغيير عن اللوكاندات  
اللى في ألبير الشرجي

قلت له وقد زاد فضولي :

— والمهندس موافق على الفكرة

فتردد الرجل ثم قال في ضيق :

— ابدا .. المهندس غرضه يتم مشروعه ..

وقلت لعبد الصمد وعلى شفتي ابتسامة اكبر من ابتسامته :

— وعابزني اكلم المهندس ليه ..



فأجاب الرجل في ارتباك

- سماعتك التي جأى تحجج وتفصل في الموضوع كله . . والمهندس  
معاه دلو قيت بوظف كبير من وزارة المعارف بيكلمه علشان ياخذوا  
البيانات للتلاميذ

وصرخت في غير تصديق :

- تلاميذ ايه . حتى الحكومة تسيت للمشروع ده معمول علشان  
ابنه . .

ولم يفهمي عبد الصمد ، ونظر الى ميسائل يريد ان يعرف مغزى  
سؤالى

فيسالته في حدة :

- المهندس فين . .

فاشار الى الخارج وقال :

- جاعد بره . .

فقال المهندس منفعلًا : وكان يجلس معه رجل سمين قصير  
تفحصني بعين مسترئيتين قبل ان ينهض ويمد الى يدا لينة طرية  
لبصافتي . .

وما كاد المهندس يفزع من تقديم كل منا للاخر ، حتى انهضت من  
جديد في المناقشة التي كانت تبدو حامية بينه وبين ضيفه  
قال المهندس وهو ينظر الى كانه يريد الاستعانة بي :

- انا انتحر ولاسيبر القرية دي للتلاميذ . انا موش ياني عشاير  
نوم . انا ياني بيوت للفلاحين يسكنوا فيها . عائلات : اب وام واولاده  
اسرة كاملة مش ولاد ما اهتمين ينشطوا هنا وهناك . اوه ياربى . .  
مستحيل .

ورمقه الرجل السمين بعينين ياردتين بمعنى سمكة ميتة ، وقال له  
في صوت رقيق مرتفع : صوت رجل امضى اغلب حياته يلوس  
للتلاميذ :

- يس ماترعلش بيتي . دا مجرد اقتراح يا عرض عليك : انا  
سمعت بالمشاكل الموجودة بالنسبة للقرية دي . ولما استلمت على  
الجديد ، وبقيت مسئول عن تنظيم رحلات المدارس ، فكرت في ان  
احسن وسيلة للاستفادة من القرية هي ان الطلبة ينزلوا ليها في

٩٦٠

وحلاتهم الشتوية في الاقصر . ذى بنايات واسعة ويمكن توفر علينا  
فلوس كثير . . وقلت امريش عليك الفكرة قبل ما تكلم مع معالى الوزير  
.. الاصول كده .

فانتفض المهندس قائلا في ثورة :

- حتى الوزارة حتخلدنى . . طيب انا يقول ان الرحالة في الجبل  
جملة ميفهموش ، ولازم تفهمين بالقوة . . تقوم الوزارة كمان متفهمش  
.. موش هيه اللى وافقت على المشروع . . موش هي اللى اتحمست  
له . الوزير السابق اللى وافق على المشروع كان عايز يعمم التجربة بعد  
نجاحها هنا . .

فقاطعه الموظف في برود قائل :

- لكن التجربة باين عليها موش ح تنجح . .

فصرخ المهندس :

- ح تنجح بالقوة . . الناس موش عايزة تعتمدن الا بضرب الكبراج .  
طيب اذا كان ده اللى عايزينه ، نضربهم بالكبراج  
والثفت الى المهندس فجأة وقال :

- انت جيت الصبح دقك طويلة . وحلقتها . حد قال لك تحلق  
دقك والا شعورك بالنشافة هو اللى خلاك تحلقها

فقلت له ، وقد فقدت كل احساسى بجديّة المناقشة . وكان ما  
يدور امامى فصل هزل . .

قلت هازلا :

- يعنى لو ماكتنش حلقتها . . كنت شريتني بالكبراج علشان  
احلقها . .

فنظر الى في غيظ وقال في عصبية :

- ارجوك تفهمنى . ارجوك . ذى مسالة خطيرة . ونصيحة عالية .  
سمعتنا في العالم ح يتقى طين . اتم ما تفرش اد ايه مهتمين بالمشروع  
ده في اوربا وامريكا . دا عمل العمر كله . اسنى ارتبط بيه ، موش  
كل مهندس تبجي له فرصة انه يبني بلد . انا جت لى الفرصة . . لكن  
انا عارف ان فيه اعداء كثير ييحدوني ، وعايزين يحطوا المشروع .  
انا ح حارب موش ح اقف ساكت

وبدات الة خرية التي اشمر بها تحول الى قرف ونشيان . كل كلام

اسمعه هنا ، ينتهى الى المصلحة الشخصية . هيد الصمد يبحث عن الربح من وراء فندق ، والموظف السمين يبحث عن مشروع جديد يتباهى به امام الوزير والمهندس حريص على سمعته العالية ، لا احد يذكر اهل الجبل ، انهم لا يفكرون فيهم على الاطلاق ..  
ولع في راسى خاطر غريب ..

سينتصر اهل الجبل بالنسبة لمشكلتهم من حيث لا يتوقعون . انهم لن يهبطوا القرية النموذجية ، لان الذين بنوها بدأوا يتشاجرون عليها دب الاتقسام في صفوفهم بعد ان ارتفعت المباني وراوها يبيعونهم ، ذهب الكلام الاجوف الذى كانوا يتشدقون به عن تحسين حالة الفقراء الذين يعيشون في الكهوف . وظهرت الاسباب الحقيقية الكامنة وراء المشروع .. ربح شخصى ، او مجد شخصى ، ومن يدري ماذا ستانى به الايام ، من افكار اخرى لرجال ذوى الطماع جديدة في هذه القرية ..

وقمت مستأذنا اريد الانصراف لاعداد الى الاقصر ، ولم تفلح محاولات المهندس في ابقائى تلك الليلة معه

\*\*\*

وعبرت النيل وقد اقبل الليل .. وذهبت الى بيت صديقى وكيل النيابة ، فوجدته غارقا بين قضاياه ، يفحصها فوق منضدته الخشبية ، وهو جالسى كعادته بالقمص واللباس . وحاول ان يؤكد لى انه كان قلقتا على مصرى بعد غيابى الطويل في الجبل ، ولكنه لم يفسر لى لماذا لم يتخذ اى اجراء للبحث عنى . لعله وجد في قلقة على تسليية جديدة له ، فاكفى بهذا القلق دون ان يضنع شيئا ..

واستمعت اليه وانا اغير ملابسى الداخلية ، واعد حقيبتي لالحق بقطار الليل المائد الى القاهرة ..

وقال لى وهو ينقر بقلمه الرصاص على ملف القضية امامه :  
- هيه .. اتأخرت . لازم انبسط .

واحترت ، ماذا اقول له . منذ مودى من الجبل ، وانا اسمع كلاما .  
وانلقى اسئلة ، لا صلة لها بما اشعر به داخل نفسى ..

قلت له : اى كلام :

- ايوه انبسط ..

.. فى فضول وانفعال :

- شفت المهندس .. الاميرة مجتش تزورك وانت هناك ؟  
- اجبتة وأنا ارنى ل حاله .. ان الاميرة لا تفارق خياله ايدا ..  
- لا مجتش ..

وصاح فى اسى وهو يرمى بقلمه على المائدة ..  
- خسارة .. فانتك فرصة العمر ..

وكنت على وشك ان ادوى له ما شاهدته فى الجبل ، ولكنى عدلت كان كل ما سمعته سر خاص بى ، لا يصح ان اوبح به لغريب .. كان يبدو غريبا عنى .. كان لم تكن بيننا صداقة يوما ما .. ورفضت الحاحه على فى قضاء الليلة معه ، وصيمنت على السفر ، فترك قضاياه ، وارتدى ملايسه ، وخرج معى الى المحطة يودعنى .. وظل يتكلم معى فى كل شىء .. عن القاهرة ، والنساء ورغبته فى الزواج ، وحيرته فى اختيار زوجة تصلح له ، وبأئمة الفراخ الحلوة التى تردد على بيته ، وفجأة سألنى :  
- على فكرة .. انت عملت ايه فى التحقيق ..

فقلت وأنا امز كنى :

- ولا حاجة ..

وشحك قائلا :

- الحقيقة انا موش فاهم ايه فائدة التحقيق - بتاعتكم .. بتحقيقوا ازاى من غير ما تكون ماكم نيابة وبوليس .. فيه تحقيق ينفع . مع ناس زئ دول من غير ما تقبض على عشرة خستاشر اتوددوا يصفروا مشاكلهم بيتهم وبين انفسهم على طريقتهم .. وتفضل تقرر فيهم .. وپروه مايفش فائدة .. مستحيل يتكلموا

\*\*\*

وقابلتى مدير التحقيقات متهلا .. وعانقتى فى حرارة كانه يريد ان يتأكد وهو يضمنى اليه انى عدت فعلا ، سالنا معانى من عند الحرامية ..

وسألنى فى لهفة :

- هيه .. عملت ايه هناك ؟

فمددت يدي بملف التحقيق ، وما كاد ينظر اليه ، حتى اتسمعت عيناه ذخرا .. كان الملف خاليا من الاوراق ، ليست فيه غير

شكوى حسين على ..

وصاح المدير ..

- التحقيق راح فين .. اوعى يكون ضاع منك ..  
فقلت في هدوء :

- ابدأ .. هو ده التحقيق ..

وسألنى فى دهشة وهو يفحصنى بنظرات مستريبة ..

- ازاى ده التحقيق .. انا موش قاهم .. ايه الى حصل  
وأجبته فى برود :

- ولا حاجة .. حسين على كاتب الشكوى ، لقينته مسافر الواحات  
.. ومحدث عارف ح يرجع امتى ..  
فصاح فى انفعال :

- والاختلاسات الى فى القرية النمـوذجية .. مملتش فيها  
حاجة ..

قلت فى برود اكبر :

- ولا حاجة .. نبعت مفتش ادارى يعمل جرد .. وخلص

وتنهذ المدير فى ضيق وقال فى غيظ :

- طيب اكتب مذكرة بانتداب مفتش ادارى ..

ورفع يده يائسا وقال :

- أنا موش عارف ابعت الملف ده ازاى للوزارة ، ومافيش ورقة

تحقيق واحدة .. انت سافرت على حساب الحكومة .. لازم تثبت

لها انك اشتغلت .. كويس يقولوا انك رحت تتفرج على الانار ..

قلت فى عناد :

- يعنى كنت عايزنى اعمل ايه ..

فنهف فى حدة :

- لسه ح اقولك تعمل ايه .. اسال كام واحد .. اسال المهندس

والمعاون .. اسال كبير مفتشى الانار .. كنت تقدر تعمل محضر

يملا العين .. هي شغلانة يا اخي ..

وتركنه وأنا اشمع بانى لم أعد صالحا كى اكون مفتشا

للتحقيقات ..

وجرفنى تيار الحياة فى القاهرة بعيدا عن أهل الجبل ، ومرت

بى الايام والشهور .. وأنا اعمل كل تحقيق أكلف به ..

وتكدست ملفات القضايا فى درج مكتبى .. دون أن افتحها

.. ولم يكن واضحا فى ذهنى أن هناك علاقة بين اعمالى للعمل

والتجربة التى مررت بها فى جبل فى الصعيد ، كل ما أدركته فى

ذلك الوقت .. أن اعمالى بدأ بعد عودتى من هناك ..

وانقطعت صلتى تماما بأهل الجبل .. لم أعد أسمع عنهم

ولكن ذكرهم كانت تفعرنى فجأة فى أى وقت وفى أى مكان

كالم مفاجئ ينقبض له صدرى . ويدفعنى الى حزن غامض يستولى

على لغترة من الوقت

وكنت اتساءل ، ترى هل استمروا فى كتحتم ، وهل حصلوا على

الكتر سرا . دون أن يدري احد . ترى هل انتصر المهندس واجبرهم

على سكنى البنايات ، ماذا حدث لحسين على . والعمدة ، ومسعدة ،

والخوجاية . اسئلة كثيرة تمر بخاطرى ، وانلفت حولى ، فلا اجد احدا

يعلم عنها شيئا ، او عنده الجواب عليها

ومرت سنتان ، واضطرت الى الاستقالة . بعد أن أصبحت مصدر

متاعب جمة لمدير التحقيقات بكثرة غيابى عن العمل ولم يخطر ببالى

أنى سأستقيل بسبب فشلى فى تحقيق الجبل . كل ما حدث انى تذكرت

هذه القضية بعد أن وقعت استقالتى مباشرة ، وكان مدير التحقيقات

يقرا الاستقالة وهو لا يكتم ارتياحه الظاهر فى عينيه للتخلص منى ..

اما انا فقد شغلت عنه وسرحت بخيالى فجأة مع الكهوف والمقابر

الفرونية وسكانها

وظن المدير انى متأثر للاستقالة .

فوضع على شفتيه ابتسامة مصطنعة وقال :

- هيه . ما تعدل عنها ، وخليك معانا . انت باين عليك زعلان

- الحقيقة انا سايب ورايا ذكريات كثير ..

وقال فى شبه سخرية :

- ذكريات ايه اللى الواحد يهتم بيها فى وظيفته . ذكريات كلها

تعب وشقا ..

قلت له وأنا احاول الابتسام :

- على وايك ..

وكان هذا هو آخر عهدى بالتحقيقات  
وسمعت بعد ذلك عن أهل الجبل . قرأت يوما في الصحف نبأ  
عدول الحكومة عن مشروع القرية النموذجية واسكان الاهالى فيها  
لقد انتصروا ..

واثبتوا في انتصارهم ، فشل كل مشروع يقوم من اجل اسباب  
لا صلة لها بالاصلاح الحقيقى . ما اكثر المشروعات البراقة التى تتخذ  
قناع الاصلاح ثم يتضح انها قامت من اجل مصلحة شخصية ، او مجد  
شخصى ، او فكرة خاطئة ، او محاولة ساذجة لتقليد أوروبا وامريكا .  
الاصلاح يجب ان يكون للاصلاح ، يجب ان يكون لمصلحة الدين يعد  
من اجلهم المشروع الاصلاحى . وهذا هو آخر ما فكر فيه من قاموا  
بمشروع القرية النموذجية . فكروا في شكل القرية من الناحية  
الهندسية الفنية ، وفكروا في السياح الذين سي شاهدون القرية  
فيعجبون بها ويقولون عنا اننا نعمل على ترقية مستوى الفقراء ، بلا  
عمل بعد بناء هذه القرية

ان القرية النموذجية رمز . وليست مجرد حادث عرضى وقع في  
بقعة نائية من بلدنا . انها رمز للمشروعات المتلاحقة التى تصفق لها ،  
حمى وحماس . ثم نساها بسرعة بعد فشلها ، لاننا نخجل من ذكرها  
المشروعات اصبحت كالومضة ، تنور حولها الضجة وتلمع بمناسبتها  
بعض الاسماء ، ثم تختفى ولا يبقى منها اثر نافع للناس ، ثم تنور ضجة  
جديدة حول مشروعات اخرى جديدة

كم هو مفزع حقا ان يستمر هذا الحال ..  
وروى لى بعض اصدقائى من الفنانين الذين ذهبوا الى الاقص  
وعادوا ، بعض ماكانوا يشاهدونه في الجبل ، كنت اسألهم عن العمدة  
وحسين على او مسعدة فيهبزون رهوسهم ويقولون انهم لا يعرفونهم  
ولكنهم شاهدوا الخوجاية اكثر من مرة ، وهى تجمع القطط الضالة ،  
والكلاب المريضة وتعنى بها .

ووصفوا لى القرية ، وهى خاوية تسكنها الاشباح ، تخلى عنها  
الجميع ، وبقيت بجدرانها ، ومسجدها ومدرستها وبيوتها ، صامتة  
بعلوها التراب ، وتعوى فيها الرياح ..  
ماذا يصنع اهل الجبل الان بعد ان استقروا في كهوفهم ، وزال عنهم

\*\*\*

آخر مرة سمعت فيها عن اهل الجبل في صباح يوم من ايام الشتاء  
الماضى ، كنت اقرأ صحف الصباح ، واذا بى اجد في الصفحات الاولى  
لجميع الصحف ، خبرا عن زيارة الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس  
الاندونيسى سوكارنو للمقابر الفرعونية في الشاطئ الغربى للنيل

المقابل للاقصر . وزاروا مقبرة في نفس منطقة اهل الجبل .  
وكتبت الصحف تقول : انه بينما الرئيس يسادران المقبرة  
أعترضهما عمدة الجبل ، وصم على دعوتهما للجلوس معه . وجلسا  
معه على دكة خشبية ، وقدم لهما البرتقال .  
وخفق قلبى وأنا أفرا الخبر . العمدة مازال بخير بعد كل هذه  
السنين . انه مازال يدعو ضيوفه ويرحب بهم ويقوم بواجبه كعمدة :  
فيقدم لهم « البرتقانات »



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/١٩٩٤

I.S.B.N 977-01-3839-8